منصورة عز الدين

أخيلة الظل

رواية

أخيلة الظل

التنوير

منصورة عز الدين

أخيلة الظل

رواية

إلى:

كريم، عدو النار المسكون بظله، والحالم بكون أزرق!

«الكلام الكثير يقود أخيرًا إلى الصمت، ثبِّت قلبك على جوهر الفراغ».

لاو تسو.. «كتاب الطاو»

ترجمة: فراس السواح

ليست صورة، بل ركلة محكمة!

تخيَّلوا معي مقعدًا خشبيًا في الباحة الأمامية لبيت على ضفة «الفلتافا»، قريبًا من جسر تشارلز.

على المقعد تجلس امرأة مكتنزة، شعرها يتلاعب به هواء الربيع البارد وملابسها سوداء متقشِّفة. المرأة مستغرقة في تأمل مساحة صغيرة من الأرض بين قدميها المتباعدتين قليلًا. ذهنها فارغ وضربات قلبها متسارعة.

بجوارها رجل يقاربها في العمر، بشعر داكن وملامح حادة وعينين متجهِّمتين. لا ينظر إليها، يحدِّق مثلها في الأرض، ومع هذا يشعر كما لو كانت في مجال رؤيته.

وحيدان في ضُحى مشمس. هي قادمة من القاهرة في زيارة لواحدة من مدن أحلامها، وهو وصل من «سياتل» قبل يومين للمشاركة في مهرجان أدبي بمدينة لا يمل من التجوُّل فيها.

الاثنان يمتهنان الكتابة، لا غرابة إذن في أن يلتقيا أثناء زيارة كل منهما على حدة لبيت كافكا، متحفه لو شئنا الدقة.

حتى الآن لا يعرف أحدهما الآخر ولا يدركان التشابهات بينهما، كلاهما شبح يحدس بوجود رفيقه دون أن يراه أو يتقاطع معه.

«يوم جميل، أليس كذلك؟».

جملة مكرورة حاول بها الكاتب القادم من سياتل بدء حوار مع الجالسة بجواره غارقة في اللاشيء. هزَّت رأسها موافقة ولم ترفع عينيها عن المساحة بين قدميها، فكاد جارها يقلع عن رغبته في دردشة عابرة مع امرأة لا تدل ملامحها على عِرقها أو جنسيتها.

استقامت في جلستها وباغتته بإنجليزية متقنة: «سأكتب عن هذه اللحظة يومًا ما. ثمة لحظات يتكثَّف فيها الزمن حتى أكاد أشعر بثقله وقوامه، أحدِّق فيه وأراه يبادلني التحديق. اللحظات المماثلة تمكث طويلًا بداخلي، ولا أتخلَّص منها إلّا بتفريغها على الورق. الآن وهنا، أعاين الزمن كما لم أعاينه من قبل، أراه متجسِّدًا في المسافة بين قدميّ».

- «أنتِ كاتبة؟! أنا أيضًا كاتب. أزور «براغ» بشكل دوري، وفي كل مرة تأخذني قدماي إلى هنا ما إن أضع حقائبي في غرفة الفندق».

- «هذه زيارتي الأولى، لكن هل ستصدقني لو أخبرتك أنني أرى «براغ» في حلم متكرِّر، وأنها في الواقع، مطابقة لما سبق وحلمت به؟»

لم يرد، وإن حملت عيناه فضولًا دفعها لمواصلة ما بدأته.

«في حلمي، كنت أكتب قصة - وأراها وأشترك في أحداثها في الوقت نفسه - عن كاتبة روسية تعيش في «براغ»، تكتب بدورها عن طفلة ناجية من مذبحة. يسكن مع الكاتبة الروسية عازف بيانو رغبتُ خلال الحلم في اختيار جنسية مناسبة له، ثم قررتُ إرجاء الأمر لوقت لاحق!

كان ثمة أيضًا عجوز يسير بلا انقطاع، جيئةً وذهابًا، على جسر تشارلز، فيما أتابعه من شرفة الكاتبة الروسية في بناية تشرف على الفلتافا.

في خطوه اللانهائي، يمعن العجوز النظر صوب موطئ قدمه، كأن نظرته هي ما يحفظ توازنه، قبل أن يحدِّق في امتداد النهر على جانبي الجسر».

- «يبدو كفيلم أكثر منه حلمًا!»

- «ربما، لكن جغرافيا المدينة كانت واضحة جدًا في رأسي، كما أنها مطابقة لما أراه في زيارتي هذه».

منذ وصلتُ، تسير بالساعات، جيئةً وذهابًا، على جسر تشارلز، وتتسكَّع طويلًا بموازاة الفلتافا بحثًا عن بناية عتيقة تقع فيها شقة كاتبة روسية رأتها في حلمها، واثقةً من أنها موجودة، بكل تفاصيلها، في انتظارها.

تخطو بلا كلل، وفي ذهنها أن عجوزًا يتابعها من شرفة شقة في البناية بالغة القدم، مديرًا ظهره لكاتبة ستينية منهمكة بالداخل في ماراثون مع الكلمات والأفكار، ولعازف - بلا جنسية محدَّدة - جالس إلى بيانو على مقربة منها متأملًا أصابعه المفرودة فوق المفاتيح، ومحاولًا تجاوز هاجس أنه فقد، إلى الأبد، قدرته على العزف.

العجوز، غير منتبهٍ لما يحدث خلفه، ولا يخطر في باله مأزق رفيقيه، فقط يراقب من تذرع الجسر بدأب، واثقًا من أنه كان إياها في حياة سابقة، وأنه لولا المرض لما اختار نشاطًا يقتل به الوقت أفضل من هذا السير الطقوسي من إحدى ضفتيّ الفلتافا إلى الأخرى.

***

ماذا لو اخترنا للقاهرية الجالسة في الباحة الأمامية لمتحف كافكا، اسم كاميليا! وللرجل القادم من «سياتل» والمستكين بجوارها منصتًا لكلماتها اسم آدم!

تأخرتُ في هذا؟ أعرف، لكنَّ أشياء مماثلة يمكن التسامح معها في ألعاب الخيال.

باحت كاميليا لآدم، بأشياء لم تسر بها لأقرب المقربين منها، إلّا أنها احتفظت لنفسها بسرها الأشبه بتربيةٍ متعاطفة ولطمة موجعة في آن.

تربيتة ولطمة محورهما بذرة طفل تكوَّن في أحشائها لأسابيع ستة، قبل أن تتخذ قرارها الأصعب بالتخلص منه. لم يستغرق وجودها في المستشفى سوى ساعات قليلة، خرجت بعدها بلا تغيير ظاهر، وإن أدركت أنها لن تعود كما كانت. آمنت بأن فجوة، حرفية لا مجازية، حُفِرت بداخلها.

في الليالي التالية حاصرتها الكوابيس، واعتراها وَهن لم يفهم الطبيب سببًا عضويًا له. هجرت الكتابة، وقضت أيامها تتسكَّع في شوارع القاهرة حتى يهدها التعب، فتضطر إلى الجلوس في محطة أتوبيس، أو على مقعد في حديقة عامة، تحدِّق في نقطة بين قدميها، أو تتأمل غرابًا يأنس إلى شجرة مجاورة.

في حديقة، اسمها «الحرية»، تقع في مواجهة دار الأوبرا، جلست كاميليا شاردة قبل سفرها لبراغ بأسابيع. أخرجت هاتفها المحمول، والتقطت صورة لنفسها، فلم تتعرَّف على المرأة الناظرة إليها من شاشة الهاتف. أفزعها حزن مُخيِّم على نظرتها، وتهدُل جفنيها العلويين وتجاعيد مبكِّرة غزت وجهها المرهق. في التاسعة والثلاثين، بدت كاميليا وحيدة منهكة وأكبر من عمرها بعشر سنوات.

لم تكن صورة، إنما ركلة مُحكمة أطاحت بما تبقَّى داخلها من عقل واتِّزان.

لنتخيَّل الآن ركلة عنيفة تدفع صغيرة في الخامسة للطيران ليرتطم رأسها بالجدار المقابل دون أن تفهم أي جرم ارتكبت.

فلنتذكَّر هذه الركلة، لأنها مهمة في سياق لعبتنا؛ فكاميليا لم تنسَ قط تلك الركلة منذ أطاحت بها وعلَّمتها أن أصعب اللطمات تأتي حين لا نتوقعها.

هي مؤمنة بأنها ما كتبت سوى لمحاولة فهم هذا الحدث الصغير المنتمي إلى طفولتها المبكرة:

«ربما أكون كتبت لأبتكر مبررًا للارتطامات غير المتوقَّعة، للركلات الموجهة إليَّ من أشخاص لم أؤذهم في شيء ولم أتخيَّل يومًا أن مجرد وجودي يضايقهم».

هذا ما قالته لآدم، وهي تهز كتفيها متظاهرة بعدم الاهتمام.

أنصت إليها، ثم أخبرها أنه حلم بأن يصير كاتبًا، منذ قرأ في صباه قصة لـ«لافكرافت»[1]، بل منذ رأى اسم «لافكرافت» على غلاف الكتاب.

يا لروعة الاسم، ويا لقوة الرجفة التي تعتري آدم حين يتذكَّر تلك اللحظة البعيدة.

«لافكرافت: حِرفة الحب». خطر له وقتذاك أن الكتابة هي حرفة الحب المقصودة، وأنها تناديه كـ«سيرينة» مغوية، على صخرة، في طريقه لإيثاكا لا وجود لها.

عاش لياليه التالية في صحبة ارتجاف لذيذ، بينما يلتهم قصص «لافكرافت»، حالمًا بابتكار ما يفوقها.

لن يبدو الأمر غريبًا لو افترضنا أن آدم هذا حفيد لاجئة شرق أوسطية تزوجت بحَّارًا يونانيًا، وانتقلت معه من ميناء لآخر، حتى استقر بهما

(1) هوارد فيليبس لافكرافت (1890-1937) كاتب أمريكي تخصص في أدب الرعب.

المقام في «سياتل»، فكما تعرفون كل شيء مباح في لعبة الافتراضات، وما نحن بصدده مجرد لعبة.

ما لنا والقصص؟ لنتركها للكُتّاب المشغولين بالحكايات ذات المغزى، ولننغمس نحن في ما قد يعيننا على تزجية الوقت أو تجاهل قبضته الغليظة على أعناقنا.

لن يفهم هذا إلّا: امرأة تلاحقها ذكرى ركلة قديمة، ويقتات على أعصابها طيف هاوية تتسع باطّراد في جوفها. ورجل يتحدَّر من نسل ناجية من مذبحة وبحَّار سئم السفر وقرَّر الاستقرار في مدينة باردة مستسلمًا لحياةٍ لا تعِد بالكثير.

***

«الحلم والكابوس مغزولان من الخيط نفسه، أحلامي وكوابيسي من القماشة ذاتها. بكلماتي نصبتُ الفخاخ لنفسي. كنتُ الصياد والفريسة، لم يكن «لافكرافت» سوى حجة لمعانقة الخوف. في مناماتي تطاردني طفلة لها عيون جدتي، صغيرة منهكة في مسيرات الموت. لا تبكي ولا تصرخ، فقط تنظر إليَّ وفي عينيها هلع العالَم، خوفه الأكثر بدائية وقِدمًا. لم تكن جدتي ابنة المذبحة، بل يتيمتها».

قال آدم لكاميليا كمن يحادث نفسه، ولمَّا لم يسمع ردًا التزم الصمت، وحدق في صورة كافكا المعلقة في مدخل المتحف.

في طفولته، اعتاد فتح الأطلس، والتحديق في خريطة العالم، بحثًا عن مسقط رأس جدته، متتبِّعًا مسارًا متخيلًا لانتقالها منه إلى بيروت، حيث التقت جده وتزوجته. اعتاد أيضًا تظليل مدينة سالونيكي، حيث وُلد الجد، بقلم أحمر علَّم به كذلك على كل ميناء وقع عليه بصره. كان يحلو له تخيُّل أن جده مرَّ بكل تلك الموانئ.

في حالة الجد لم يكن ثمة صعوبة، لأنه لطالما استمتع بالحكي عن ماضيه والأماكن التي زارها أو عاش بها. أما في ما يخص الجدة، فالأمر كان ولا يزال رهنًا بتخيُّلات تترك حفيدها كالتائه في غابة مظلمة.

خطر لآدم أن تكون قصته القادمة عن «ناج» من كارثة، أفاق ليجد نفسه بين الأنقاض، ثم معزولًا في غابة من أشجار البلوط، لا يدري بالضبط حقيقة ما مر به، ولا ما جاء به إلى ظُلمة الغابة ورطوبتها. في الغابة، حيث الظلال تسيطر على الأجواء ولا مكان للضوء الواضح، كان يحدس بشبح داكن يشبهه، يخطو في الممرات - بين الأشجار - بلا ملل. من بعيد يأتيه صفير الريح، ودوي منذر بالخطر كأن الكون بأسره استحال عاصفةً صوتية مخيفة.

فكَّر آدم أكثر في بطل قصته المحتملة، فتجسَّدت له صورة جدته في شيخوختها، وهي تترنَّم بأغنيات بلغة لا يعرفها. أغنيات أقرب لتراتيل جنائزية، كانت تُدخلها - كل مرة - إلى قوقعة تعزلها عن الجميع.

لم تحكِ لأحد قط عن ما مرَّت به. حياتها المصرَّح بها تبدأ من لحظة لقائها ببحار يوناني جُن بها فارتحلت معه ولم يفترقا إلّا بوفاته. كل ما سبق هذا متروك للتخمينات، تخمينات انشغل بها الطفل الذي كانه آدم، في جلساته الممتدة بقبو منزل عائلته.

في القبو، تعلَّم آدم كل ما يلزم تعلمه عن الحياة!

أدرك، مثلًا، أن الوسيلة المُثلى لقهر الخوف هي الاستسلام التام له، التماهي معه بحيث تكونه ويكونك. تصير أنت وهو شيئًا واحدًا، وساعتها سيتغلغل فيك، فيفقد سطوته عليك ويصبح وحشًا هزليًا بلا جلال أو قدرة على التخويف.

في القبو المعتم حدَّق في وجه مخاوفه وامتصتها مسامه، رقد على ظهره، منتظرًا أن تتجسَّد أشباح مخيلته أمامه، وتصحبه إلى كل ما ارتعب

منه. سمع فقط أصواتًا مكتومة لجرذان محتمية في الظلام، أنصت لأفكاره وصمته.

سبح في عوالم «لافكرافت»، فبدت له مع الوقت بعيدة عن واقعه، ومع ذلك اختار العيش فيها والإيمان بها. وقعت أليس في حفرة الأرنب فوطأت أرض العجائب، وقضى هو أوقاته في ظلمة القبو المزدحم بالكراكيب والمغطَّى بالغبار، فأتقن سبر أغوار ذاته.

قرأ مرة عن قبيلة بدائية تغلق على صغارها القبور لساعات كي تقتل خوفهم بإغراقهم فيه، لم تخبره المقالة عن مصير من مرُّوا بهذه التجربة، ولم يعرف كيف عاشوا حياتهم بعد «موتهم» المؤقَّت، غير أنه يدرك أن الصغير الذي رقد في القبو المظلم لأول مرة، اختلف عمّا كان، بعد مجاورته لكوابيسه وترويضه لها.

في سكون القبو، أشرق عقله بفكرة أن أسوأ الشرور مغروسة بداخلنا، وأن الأشباح والشياطين مُبَالَغ في تهويل أمرها والتخويف منها، للتمويه على الشر الكامن في قلوبنا.

من سمَّموا حياة جدته، وقضوا على عائلتها، لم يكونوا أشباحًا أو شياطين بل بشر. سكنه رعب جديد: أن تضطره الحياة لإخراج جانبه المظلم.

لم تحكِ جدته قط عن أهوال طفولتها، تحوَّلت إلى طلسم مُلقى في أعماق بئر. كانت تجلسه بجانبها وتغني له بصوت شجي ما لا يفهمه، فيما يسرح هو بعيدًا متخيِّلًا سيناريوهات محتملة لما تخفيه وترفض الاعتراف به.

يراها - بعينيّ خياله - صغيرة مرتعشة، تحبس نفسها في خزانة ملابس متظاهرة بالموت حتى يزول الخطر. يروقه تخيل أنها تظاهرت بالموت لفترة قصيرة عاشت بعدها تتظاهر بالحياة!

في مخبئها المفترض وصلها عويل أمها وصراخ شقيقاتها المختلط بصوت لطمات وأوامر خشنة. بمغادرة المعتدين حاصرتها رائحة الدخان. خرجت بجسد مرتعش وعينين لا تريان، فأبصرت جثث أسرتها: كن عرايا غارقات في دمائهن. النيران تلتهم كل ما في طريقها والصالة مختنقة بدخان شديد السواد تنافسه نيران مسعورة بدرجة لونية لن تنساها الصغيرة أبدًا. حتى آخر عمرها امتنعت عن ارتداء البرتقالي بكل درجاته، وتحاشت النار ما استطاعت.

متردِّدة بين الارتماء على جثث أحبتها حتى الاشتعال معها وبين الهرب وقفت لبرهة. لسعة النيران حسمت الأمر. جرت عائدة إلى الغرفة، وقفزت من النافذة المكسورة. ركضت دون إدراك للمسافة أو الزمن، ثم خارت قواها وبدأت دموعها في الفيضان. بكت نيابة عن كل القتلى منذ بداية الزمن.

***

في القبو أيضًا، اختبر آدم تجربته الجنسية الأولى. كانت الفتاة أكبر منه بسنوات قليلة، قادت خطواته إلى خبايا جسدها وجسده، سحبته في عجالة إلى طريق المتعة. كانت عصبية نافدة الصبر وتبرَّمت حين قذف سريعًا. ظن لفترة بعدها أن نفاد الصبر والغضب سمتان ملازمتان للنساء في المواقف الحميمة. ضيق الفتاة أورثه رهبة من الجنس كلفته سنوات من عدم الثقة بالنفس والقلق من ألّا يكون قادرًا على إرضاء امرأة.

يفكِّر في فتاة القبو، فيخايله طيف شابة بشعر نحاسي وبشرة يكاد يخفيها النمش وعينين لونهما حائر بين أخضر باهت وعسلي مائل للخضرة، لكن الشعر الأشبه بغيمة فوق سماء الجسد المشدود هو ما يبقى معه، لأنه ظل لسنوات يستحضرها، وهي تغادره بصمت أقرب للتوبيخ: ارتدت ملابسها بهدوء، وغادرت دون التفاتة واحدة لمن كان

لا يزال راقدًا يتدارى خلف سيجارة متظاهرًا بالانغماس في تدخينها والتحديق في السقف.

مؤكَّد أن إضاءة القبو لم تكن جيدة، وأن لون شعرها بالتالي لم يكن مشعًا واضحًا، غير أنه لا يتذكره إلّا برّاقًا متأرجحًا خلفها على وقع خطوتها الراقصة. لا يستحضر فتاة مراهقته هذه إلّا وظهرها له، كأنها في وضع نفور منه ومغادرة له بشكل دائم.

انتقلت إلى مدينة أخرى بعدها بقليل، ولم يرَها ثانيةً، ومع هذا ظل يراها في كل امرأة لها لون الشعر ذاته، وبقيَ حسَّاسًا لكل بادرة إعراض عنه.

لم يفهم لماذا حكى لكاميليا هذه الحكاية القديمة، ولا كيف باح لها بأسرار طفولته ومراهقته، أثناء جلستهما في الباحة الأمامية لمتحف كافكا، كل ما يعرفه أن خيط الحديث امتد بينهما بسلاسة وعفوية، بدوَا كما لو كانا يتسابقان على أيهما أكثر جرأة في التعرِّي النفسي والكشف عن أعمق مخاوفه.

***

شمس تظهر من خلف الغيم، هواء يهز سعف النخيل، وهدهد ينقر العشب بثقة أحمق، بينما تجلس كاميليا إلى مقعد في «حديقة الحرية» بعينين ثملتين، تستعيد جلسة سابقة في باحة بيت على ضفة الفلتافا، وذكرى قديمة متجدِّدة تلاحقها أينما اتجهت.

أصبحت هذه الحديقة شبه المخفية ملجأها كلما شعرت بضيق ورغبت في الغرق داخل ذاتها. منذ جلست فيها قبل أسابيع من سفرها إلى براغ، وحدَّقت بأسى في صورة التقطتها لنفسها بعدسة تليفونها المحمول، وهي تحس برابط عميق يربطها بهذا المقعد الرخامي المثبَّت بأرض الحديقة العامة التي نادرًا ما يلاحظها المارة السائرون في المسافة

بين كوبري قصر النيل وكوبري الجلاء، أو العربات المارقة أمام دار الأوبرا.

أغمضتْ عينيها فواجهتها هُوَّة سوداء تتسع داخل جسدها، التهمت في البداية الرحم، ثم المبيضين والكبد والكليتين، فارتجفت كاميليا وحدَّقت في الغيوم المنسحبة خوفًا من أن تتضاعف الهُوَّة وتطرد قلبها من تجويفه. خُيِّل إليها أن السُحب ترسم صورة طفل يحبو، فامتنعت عن النظر لأعلى.

انتبهتْ إلى أن الحديقة تكاد تخلو من المتنزِّهين، وصلتها أصوات الشارع بالخارج، وغرَّد طائر تجهل اسمه. نظرت إلى اليمين فتراءى لها طيف رجل بشعر داكن وعينين متجهِّمتين يجلس بجوارها.

قالت موجِّهة حديثها إليه أملًا في أن تمحو الكلمات صورتيّ الطفل والهوة السوداء:

«كثيرًا ما أشعر أنني لستُ امرأة من لحم ودم، بل فكرة خطرت لكاتبة، وراحت تجترها بلا رغبة في تعميقها أو التوسع فيها أو حتى كتابتها. رتوش خفيفة في لوحة عصية على الاكتمال. أكتب بحثًا عن تمامي وطمعًا في تحويل الفكرة العابرة، التي هي أنا، إلى كيان ملموس له وجود واقعي».

قالت أيضًا:

«ليس الأمر أنني أستعير حيوات شخصياتي الفنية وأمزجها بحياتي، بل أن حياتي نفسها مستعارة، لا تخصني ولا تشبهني، كأنني اقترضتها من عابر سبيل عجول، وتركت طفلة كنتها، امرأة كان من المفترض بي أن أكونها، هناك في مكان قديم، في ركنٍ معتم يتراكم عليها الغبار.

خلال رحلات متتالية بالقطار بين مدن أوروبية عديدة، غمرني شعور

أنني أعيش حياة امرأة أخرى. كنت أرقب - من نافذة القطار - الغابات والبحيرات والجبال العابرة فيتضاعف شعوري بهذه الحياة المُفترَضة ويزداد انفصالي عنها. «ليس من المفترض بي أن أكون هنا!». كنت أقول لنفسي على مدى شهر قضيته هناك، قبل أن أتذكر أن هذه الجملة، هي العنوان المضمر لحياتي منذ بدايتها. لطالما امتلكني إيمان عميق بأنني دائمًا وأبدًا في المكان الخطأ».

ولمَّا لم تتلقَّ ردًا، فكرتْ في أن الكتابة، في جوهرها، مطاردة للسراب ولعب معه، بل واختراع له. تحويل الواقعي المؤكد إلى سراب مخاتل، والإيهام بأن السرابي حقيقة ماثلة تنتظر أن نرتوي بمائها المتطاير.

رنت لليمين من جديد، فكشف الطيف، ذو الشعر الداكن والعينين المتجهمتين، عن سرابيته وتلاشى. نظرت حولها، فلمحت رواد الحديقة القليلين يتابعونها بدهشة قبل أن يتظاهروا، محرجين، بالانشغال بأمور أخرى.

من مقعدها في حديقة الحرية، أغمضت كاميليا عينيها مجددًا، ورفعت رأسها، فـ«أبصرت» سيلًا صاخبًا من الصور والمشاهد، «رأت» سماءً أخرى أشبه بشاشة عرض، على صفحتها كرنفالات راقصة تشتمل على: فرقة موسيقية تعزف بلا انقطاع، خيول ترقص على وقع النغمات، أطفال راكضين بمرح، ونيران مشتعلة حولها أناس يستمعون لقصص لا نهائية وفي حدقاتهم ينعكس اللهب المتأجِّج.

غرقت أكثر في الصور المتلاحقة فرأت نفسها شابة في شرفة مظلمة بين ذراعي رجل يكبرها بعشرين عامًا، بعد لحظات وفي الشرفة نفسها لكن ذات نهار ساطع، كانت تجلس محتضنة طفلًا رضيعًا متعلِّقًا بها فيما هي منشغلة عنه بمراقبة كرنفالات شاشة العرض السماوية، ثم تغيَّر المشهد، غابت اللمسة الاحتفالية، وظهرت فجأة عربة تجرها خيول

راكضة، تخترق صفحة السماء، ثم تنحدر كشهاب يحترق في طريقها إلى كاميليا، ومن نافذة العربة امتدت يد قوية ووصلت إليها لتنتزع الرضيع منها.

أفاقت من أفكارها وتخيُّلاتها على مشاعر مختلطة، أحست بالهلع من فكرة انتزاع رضيعها من بين يديها، ثم براحة لعدم وجوده من الأساس، راحة تلاها حزن على فقده قبل أن يُولد.

رفعت كاميليا عينيها إلى السماء، وتأمَّلت الرسوم والأشكال التي تكوِّنها السحب. بانت لها، هذه المرة، كتكوينات هلامية لا تشبه شيئًا محدَّدًا، ثم مع التدقيق، تشكَّل أمامها ما يشبه رسمًا لفرس بجوارها مُهرة، بدتا كأم وصغيرتها تسيران متجاورتين. تمامًا كما كانت كاميليا تسير، بجوار أمها في مشاوير قريبة للتسوق أو لزيارة إحدى الصديقات، حيث ثرثرات دافئة لا تنقطع مصحوبة بطقس تناول قهوة تركي ينتهي دومًا بقراءة دولت لطوالع صديقاتها في فناجين قهوتهن أو أوراق «التاروت».

في تلك اللحظات، اعتادت كاميليا أن تراقب أمها بانبهار، إذ كانت تراها وكأنما امتلكت فجأة قوى سحرية، حتى ولو لم تكن تنبؤاتها صحيحة دائمًا، يكفي أن أنفاس الصديقات تنحبس انتظارًا لما ستقوله لهن صديقتهن التي تعلَّمت قراءة الطالع من مربيتها النوبية.

في طريق العودة إلى البيت، قد تحكي دولت لابنتها سر اختيارها «كاميليا» اسمًا لها، وقد تعدها بأن تعلمها قراءة الفنجان وأوراق التاروت حينما تكبر. مهما تنوَّع موضوع حديث الأم، فتلك كانت أكثر لحظاتهما معًا دفئًا وحميمية. في الشارع، وأثناء سيرها بجوار ابنتها، اعتادت دولت أن تكون في أقصى درجات حنانها، كأن ثمة شيئًا ما كان يكبِّلها في البيت، ويقف حاجزًا بينها وبين ابنتها.

***

سمَّتها أمها كاميليا تيمُّنًا بممثلة الأربعينيات الجميلة. حين كانتا تجلسان معًا لمشاهدة فيلم كاميليا الأصلية، «قمر 14»، كانت كاميليا الطفلة تشعر أن الاسم المشترك سخرية شريرة منها. لم تمثل حقيقة أن ممثلة الأربعينيات كانت مجرَّد وجه جميل بلا موهبة تذكر، عزاءً كافيًا. كما لم يقلِّل من مفارقة الفارق، بين بطلتنا العادية وبين سميتها المثيرة، أن الاسم الحقيقي للأخيرة كان ليليان كوهين وأن دولت وصديقاتها كُن ينادين الصغيرة بـ«مِيليا».

لم تكن الأم تحب تلك الممثلة على وجه خاص، إذ لم تشاهد لها سوى فيلمين، ومع هذا قضت سنوات مراهقتها تجمع صورها ومعلومات عنها من المجلات الفنية، لا لسبب إلّا لأن الأم الرومانتيكية أحبت علاقة المرأة الجميلة بالمخرج والممثل أحمد سالم.

فلنقل إن إعجابها الأساسي كان منصبًا على أحمد سالم نفسه، الرجل الأكثر جاذبية جنسية من وجهة نظرها، لطالما تمنَّت لو أنها عاصرته وتعرَّفت عليه. اهتمامها بكاميليا الممثلة لم يكن أصيلًا إذن، بل إكسسوار مكمِّل لغرامها المراهق برجل لم تَرَه إلّا في صور قديمة ومشاهد بالأبيض والأسود في أفلام نادرًا ما يتذكرها أحد، ولم تعرف عنه إلّا ما قرأته من معلومات تقدم صورة غير مشرقة تمامًا، لبطل- ضد، يحمل بداخله بذرة فَنائه ويشعل بيده جذوة ستحرقه لاحقًا، وهي مفتونة منذ صغرها بهذا النمط من الشخصيات، ممثلوها المفضلون هم من أجادوا أداءه، فما البال وقد تجسَّد في شخص حقيقي بعيدًا عن شاشات العرض!

مراهَقة خطرة قادتها إلى الزواج في العشرين ممن رأت فيه الرجل الأقرب شبهًا بفتى أحلامها المقامر.

بين أم خيالية تحيا في زمن آخر، وأب عصبي رأى في شرود طفلته

الدائم وبطء حركتها علامتيّ تأخر عقلي، عاشت كاميليا في انتظار الركلة التالية من أب تحوِّله نوبات غضب جنونية إلى كائن مخيف لا يشبه فكرة ابنته عن الآباء.

حقيقة أن الركلة، التي طيَّرتها في الهواء وهي في الخامسة، لم تتكرَّر ثانيةً، لم تهدِّئ مخاوف كاميليا، ولم تقنعها قط بالتخلي عن هلعها كلما رفع أحدهم ذراعه أو حرَّك قدمه على نحو مفاجئ. وسبب هذا أن الأب استبدل بالركلات تشكيلة منوعة من العقاب الجسدي الخفيف أحيانًا والمؤلم غالبًا، تشكيلة أورثت كاميليا شعورًا دائمًا بالسقوط من علٍ.

بعد كل هذه السنوات، كثيرًا ما تستفيق من نومها، على إحساس بالتدحرج لأسفل، بالاندفاع نحو هاوية بلا قاع. مرات أخرى تكاد تشعر بجسدها يطير في الهواء حتى يرتطم رأسها بالجدار المقابل. مئات المرات تتكرَّر ركلة أبيها لها وتلاحقها كعقوبة أبدية.

لم تفهم قط كيف يسيطر هذا الحدث الوحيد على لا وعيها على هذا النحو! كيف لم تخف حدة الارتطام مع الوقت!

لطالما شكت من أن لها ذاكرة مسرفة في تبديد ذكرياتها، الآن تبتهل كي تتبخَّر ذكريات بعينها من رأسها، غير أن هذه الذكريات بالذات تبدو كنقشٍ على حجر، كركلة خلَّفت ندبة تشبه وشمًا.

فليكن اسمها أولجا

لنفترض أن الكاتبة الروسية، التي حلمت بها كاميليا، تُدعى أولجا، وأنها طويلة وممتلئة، بشعر فضّي قصير وعينين بهتت زرقتهما.

أولجا هذه، قضت الشهور الأخيرة في براثن إدمان لم تجرؤ على مصارحة أحد بتفاصيله: تجلس إلى حاسوبها، وبدلًا من الكتابة لساعات - كما يُفترَض بها أن تفعل كل صباح- تغرق في أحلام يقظة لا نهائية.

تتمحور أحلام يقظتها حول شخصيتين متخيلتين: رجل اختارت له اسم آدم وتخيَّلته مقيمًا في سياتل، وامرأة سمَّتها كاميليا واحتارت في تحديد مكان عيشها.

ابنة تخيلاتها هذه يجب أن تعيش في مدينة شرق أوسطية عريقة. فكَّرت أولجا في إسطنبول ثم أصفهان قبل أن تقرِّر أن القاهرة هي البقعة الملائمة.

آدم وكاميليا، كما خايلاها، يمتهنان الكتابة والتقيا مصادفة في براغ، في البداية لا تتطوَّر معرفتهما كثيرًا. يتعامل كل منهما مع الآخر كبئر يلقي فيها أسراره وخيباته، كما يفعل غريبان يثقان من أن طرقهما لن تتقاطع ثانيةً.

تفتح أولجا حاسوبها المحمول، تترك أصابعها ترتاح على لوحة المفاتيح، ثم تطلق لخيالها حرية اللهو بحياتيّ آدم وكاميليا إضافةً وحذفًا، ولا تخطو أبعد من هذا لتحويلهما إلى حروف وكلمات.

لا تكتبهما، لأنها أرادت لهما الحياة في صخب أفكارها، أرادتهما سرًا حميمًا، لا كتابة عمومية تستهدف قرَّاءً لا تعرفهم ولا يربطهم بها سوى كلمات لم تعد تؤمن بجدواها.

بصعوبة وبعد ساعتين أو أكثر، تسحب نفسها من ركام خيالاتها، وتفتح ملف قصة تكتبها منذ شهور عن طفلة ناجية من مذبحة.

تراوغها التفاصيل وتستعصي عليها، فتحدس بأن قصة الناجية ستظل ناقصة حتى لو اكتملت ونُشِرَت. هذا الوعد بالنقصان هو ما يغوي كاتبتنا ويدفعها لعدم التخلي عن بطلتها الصغيرة مهما تضاعفت جاذبية آدم وكاميليا وعلاقتهما المخاتلة.

اختارت لبطلتها الصغيرة اسم آميديا، تيمنًا بزوجة نبوخذ نصر، تلك التي شيَّد لها حدائق بابل المعلَّقة كي تذكِّرها بتلال وجبال ومرتفعات مسقط رأسها، فلا تشعر بالغربة أو الحنين المرضي وهي معه في موطنها الجديد.

غير أن بطلة أولجا ليست ملكة معشوقة تُشَيَّد من أجلها العجائب المعمارية، بل صغيرة مرتبكة تحتل ذاكرتها صورُ ومشاهد القتل والحرق والتمثيل بجثث أسرتها ومعظم سكان قريتها.

تقرأ أولجا كل ما يمكنها الوصول إليه عن مذابح الربع الأول من القرن العشرين. تهتم بمذابح الشرق الأوسط؛ تحديدًا أهوال عام 1915 في تركيا، تلفت نظرها مذابح «سيفو» ضد السريان والأشوريين. تتخيَّل طفلة تتعثَّر في مفرداتها الحائرة بين الآشورية والتركية، قاموسها

الشخصي جماع متنافر من مفردات باللغتين، كونها لا تميِّز بعد إحداهما عن الأخرى.

تجد أولجا نفسها مسكونة بعوّامات خشبية فارغة تسبح في مجرى نهر دجلة، متبوعة بجثث القتلى طافية خلفها، على سطح الماء، في الطريق إلى الموصل، وببيوت تحيلها النيران إلى تراب فتصير القرى سماءً من دخان داكن، كأن أحدهم قد شوَّه صفحتها بشخبطات لا نهائية بقلم فحمي، حتى طُمِسَت معالمها وخيَّم عليها سواد غباري كثيف.

تبعث أولجا آميديا بالكلمات، وهي تركض متعثِّرة في خطواتها وفي فظائع الأيام الأخيرة:

احتاج الأمر في البداية 50 رجلًا، جمعوا أي قطعة سلاح محتملة من البيوت، واقتادوا رجال القرية وقتلوهم في الساحة. كان هذا مفتتح الجحيم لا أكثر؛ مقدمة لمن هجموا بعدها لنهب البيوت وحرقها واغتصاب النساء وقتلهن.

لا تعرف آميديا كيف جرؤت على الهرب من البيت المحترق، ولا كيف ركضت حتى قرية مجاورة، حيث التحقت بهاربين آخرين. تحوَّلت الطرق كلها إلى مصائد لاصطياد الناجين، والتسلل إلى أقرب مدينة كاد يكون مستحيلًا.

كم تمنَّت لو كانت خفية، لو تلاشى جسدها النحيف، وحلَّقت روحها فوق جثث ذويها، بحيث لا تغادرهم أبدًا، لكن جسدها كان كثيف الحضور بأوجاعه وآلامه وجروحه الناجمة عن وعورة الطريق، أما أهلها فلم يتبقَّ منهم سوى لحم متفحِّم؛ رائحة شواء بشري ستلازمها حتى لو عاشت ألف عام.

كانت تجر قدميها بصعوبة وهي سائرة بين خليط غير متجانس من آشوريين وأرمن وسريان وكلدان ويونانيين؛ أقليَّات تفرقها لغاتها القومية

القديمة وتجمع بينها لغة مفروضة عليها؛ مَن سهت عنهم آلات القتل البشرية.

لهثت أولجا بخيالها، خلف آميديا، من مكان لآخر. توقَّفت فجأة حائرة ماذا ستفعل بطلتها الآن؟ أو للدقة، ماذا ستفعل هي ببطلتها الآن؟ لازمتها الحيرة لأيام، تحملق في الكلمات المكتوبة فتتبدَّى لها كرسوم فارغة. يغيب عنها معنى كل كلمة على حدة، ويتلاشى المعنى العام لكل ما سبق وسطرته يداها.

في لحظات الجدب المماثلة، تستسلم أولجا للتوتر والإحباط، تشرب طوال اليوم تقريبًا، ولا تطيق أن يقترب منها أحد، ثم وفي تطور تُفاجَأ هي نفسها به، يصبح الطهو ملاذها حين تراوغها الشخصيات المتخيلة، وتفلت من بين أصابعها.

باتت تشغل نفسها بطهو أصناف معقَّدة، والبقاء لفترة - مختلسة من الزمن - في عالم مفعم بالروائح والمذاقات. لا تمارسه كواجب يومي ثقيل فهي ليست مضطرة لهذا، بل كطقس مزاجي أقرب لهواية تستمتع بها وتراقب - في الوقت ذاته - ما تحتويه من سحر وإشباع نفسي، ومن قدرة على ابتكار مذاق مميَّز عبر خلط مكونات أولية بسيطة تخرج منها، في النهاية، بخلق ما يمدح مهارتها ويدل عليها.

ومع الوقت، تكتشف متعة العجن. تصير منغمسة في هذا الحوار الحسِّي بين الأصابع والدقيق الممزوج بالماء. تتعلَّم فتح عينيها للدهشة وإزاحة غمامة الروتين اليومي عنهما وهي تعجن، فتدرك أن الخميرة لديها ما تقوله للدقيق؛ حرارتها تبعث فيه الحياة، فينمو ويتضاعف حجمه وتفوح رائحتها الممتزجة برائحته. تعرف حينها أنها ليست مصادفة أن يكون ماء العجن دافئًا، فالدفء هو ما يتطلبه الأمر: دفء الماء، دفء تربيت اليد على العجينة؛ وهي تشكلها كما يشكِّل النحّات تمثالاً، ودفء يسري في النفس بعد الانتهاء وتأمل النتيجة.

في البدء تغوص اليد في نعومة الدقيق لتتحسسه بهدوء وخفر، كأن أي ضغطة زائدة كفيلة بإفساد كل شيء. ثم تبدأ رقصة خاصة مع العجين اللدن. تنتقل ليونة العجينة إلى اليد التي تصير جزءًا لا ينفصل عن محيطها. تزداد قوة العجن، ومعها تنتعش النفس وتطرد كل ما يقيِّدها ويحاصرها، تطفو أولجا فوق الأرض بضعة سنتيمترات تكون كافية للوقوف، ولو مؤقتًا، على مسافة من كل ما يؤرِّقها. تشعر أنها قادرة، بشكل ما، على المساهمة في معجزة الخلق.

ولدهشتها، تغزوها الأفكار وتتطوَّر الحبكات، وتتردَّد في رأسها جمل ومشاهد مفتاحية تقودها لاحقًا - أثناء عملية الكتابة - إلى مناطق لم تفكِّر فيها قبلًا.

كانت تعجن بيتزا حين خايلها مشهد لآميديا على سرير ضيق في دير محاط بحديقة مُعتَنَى بها. الطفلة غائبة عن الوعي، وبجوارها راهبة أربعينية، تقرأ في سِفر الخروج، وتربِّت - من وقت لآخر - جبهة الصغيرة الغافية.

تركت أولجا العجينة تتخمَّر، وجلست إلى حاسوبها تكتب عن آميديا وهي تفيق وتتعرَّف لأول مرة على راهبة طيبة، سترعاها طوال وجودها في الدير، ثم ستساعدها - بعد سنوات - في التعرف على أسرة أمريكية من معارفها، سوف تستضيف آميديا للإقامة في بيتها ببيروت كما يطيب لها.

في ذاك البيت المغلَّف بالحب والسكينة، ستقيم آميديا حتى تلتقي بحَّارًا يونانيًا، من سالونيكي، تتزوجه وتهاجر معه إلى أمريكا، لأنها في تصوُّرها كانت أبعد الأماكن عن محرقة الأهل. هناك، ستحلم بسماء بلون الفيروز، وماعز وتيوس جبلية تمرح فوق التلال والمرتفعات، وحقول حنطة وبساتين خوخ، وأشجار دُلْب ودردار. هناك، ستخاف

الهدوء التام والضجيج المفاجئ، وستغنِّي أغنيات لن يفهمها أو ينفعل بها أحد سواها.

***

أصابعها على لوحة مفاتيح حاسوبها، وذهنها في عالم آخر، تغمض أولجا عينيها، وتدير ظهرها لآميديا. تفكِّر - عوضًا عنها - في رفيقيّ تخيُّلاتها: آدم وكاميليا.

لا تراهما في جلستهما المألوفة لها في الباحة الأمامية لمتحف كافكا، بل ترى كاميليا بمفردها في حديقة عامة شبه مهجورة. تكاد أولجا تسمع ضجة خفيفة لسيارات مسرعة، وزقزقة عصافير، وهسيس هواء يتلاعب بشواشي الأشجار، وفي مركز المشهد، تجلس كاميليا منكمشة على نفسها كطائر مبلَّل وجريح. للحظات بدا آدم طيفًا يشاركها جلستها؛ شبحًا سائلًا تبخَّر فجأة بلا أثر يدل على وجود سابق.

في الحال، تتخلَّى أولجا عن رغبتها في الكتابة عن ناجيتها الآشورية، تقول لنفسها إن دافعها للتنازل عن قصة ستطاردها فكرتها دومًا مثل جريمة تطالب بالثأر، نظرة لمحتها في عينيّ كاميليا؛ نظرة عابرة دلَّتها على أن ابنة خيالاتها هذه مصنوعة من الهشاشة وحدها.

تغلق أولجا ملف الـ«وورد» المعنون بـ«آميديا أو سماء بلون الفيرز»، فتنبعث أمامها صورة سطح المكتب، تتأملها كأنما تراها لأول مرة.

كما كل مرة، تفتن الصورة أولجا، منظر شتوي من يوركشاير بإنجلترا: طريق ضيق مبلل بالمطر وينتهي بأشجار متشابكة.

يمين الطريق خط من أكواخ حجرية بالأصفر الباهت، أسطحها المثلَّثة بلون أكثر دكنة، تتسلَّق واجهاتها عرائش ورد أحمر ومزروع أمامها جارونيا وماري جولد ونرجس بري.

ويساره أشجار وحشائش وشجيرات توت بري. حدوده من اليسار تحرسها أوتاد مغروسة على مسافات متساوية في خط مستقيم، والسماء لا يبين منها سوى مثلث غائم ينعكس لونه على بقع الماء المتجمِّعة على الأرض.

تتفحَّص أولجا الصورة فتغمرها رغبة حارقة في السير في هذا الطريق لحظة التقاط الكاميرا لتفاصيله. انحناءته الأخيرة - حيث يختفي بين النباتات وغابة الأشجار - تأسر لبها. تتخيَّل ما خفي منه وغاب.

الكوخ في مقدِّمة الصورة، تظهر من خلف زجاج نافذته السفلية وحديدها ستارة بيضاء، أما النافذة العلوية فبلا ستائر؛ من وراء زجاجها ومربَّعات حديدها المتقاطع يبدو شيء عجزت عينا أولجا المرهقتان عن تحديده؛ قد يكون مصباحًا كهربيًا، أو زهرة بيضاء هائلة، أو مجرد انعكاس لتفصيلة خارج الكادر.

يروق لأولجا تخيُّل حيوات من عبروا هذا الدرب، من سكنوا الأكواخ: مئات من الاحتمالات لقصص حب وغيرة وضغائن وصراعات صغيرة وكبيرة.

وماذا عن النباتات؟ كيف زُرِعت ومن زرعها؟ وكم شهدت من حوادث وتقلُّبات؟

لا تملك عزيزتنا أولجا أجوبة نهائية، لكنها تتسلَّح بخيالاتها وأحلام يقظتها. كل تفصيلة، في الصورة أمامها، وعد بقصة لم تُكتَب بعد، وكل نافذة تخبِّئ حكاية غير مروية، كل نقطة مطر - متجمِّعة مع مثيلاتها في بقع متفرِّقة على طريق موحٍ ومغرٍ بمسير بلا هدف أو نقطة انتهاء - موشومة بتاريخ السماء والبحار والغيوم منذ بداية الخلق.

تحدِّق في الصورة، فينبعث في خيالها طيفا آدم وكاميليا. تكاد ترى كاميليا بمعطف ثقيل تستند إلى حقيبة ملابس وتقف متردِّدة أمام الكوخ الأول. قبل أن تدق بابه، تنظر إلى امتداد الطريق، ترى ما يخفى على عينيّ

أولجا، إذ تغيِّبه، خارج الكادر، الانحناءة المباغتة للطريق والأشجار المتشابكة، وتطرده بعيدًا عن العينين المتلهِّفتين للرؤية.

ترفع كاميليا وجهها للسماء تتفحَّص الغيوم وتحدس بمطر وشيك.

تتعالى ضجة من خلف أولجا، فتستفيق من خيالاتها منزعجة. رفيقها - عازف البيانو - عاودته نوبة غضب جديدة، يخبط يديه بقوة في البيانو ويغلق غطاءه. ينسحب إلى غرفته ويصفق بابها خلفه.

تهز أولجا رأسها لتنفض عنها مقاطعته لأفكارها، وتعود لصف الأكواخ وللطريق المبلل بالمطر. تجد كاميليا قد تلاشت. يخطر لها أن المكان بحالته تلك لا يلائم شخصية آدم كما تتخيلها، ثم إنه من المفترض به أن يقيم في سياتل لا يوركشاير!

«وجدتها!». تخاطب نفسها متحمِّسة. بدلًا من الطريق الضيق المؤطَّر من جهة بأكواخ ومن الأخرى بأشجار كثيفة وشجيرات توت بري وحشائش وأوتاد، يباغتها مشهد آخر: شارع مُزَنَّر بأشجار «ماجنوليا» مزهرة في ضاحية هادئة، على جانبيه بيوت أنيقة بيضاء بأسقف من قرميد وقرب نهايته بيت معزول نسبيًا عن غيره من البيوت؛ يشبهها ويختلف عنها في آن.

زجاج نافذة طابقه الأرضي تبين من خلفه ستارة فاتحة اللون، أما النافذة العلوية فستارتها غير مسدلة، ويظهر من وراء زجاجها ما يشبه زهرة ضخمة أو مصباح كهربي على هيئة زهرة لوتس.

البيت مسوَّر بسياج من أعمدة خشبية متوازية تتسلقها عرائش ورد أحمر، وبابه مثبَّت أعلاه دمية قماشية بعينين مندهشتين وفم مغلق بحزم.

توقَّف تاكسي أمام البيت، خرجت منه كاميليا، سحبت حقيبة ملابسها إلى المدخل، ووقفت لالتقاط نفس عميق. أنعشتها برودة

الهواء، فتحسَّست معطفها الثقيل، وخفَّفت من إحكام الكوفية الملفوفة حول رقبتها، ونظرت إلى سماء غائمة.

بعد لقاء أول في براغ تبعته مئات الرسائل الإلكترونية المتبادلة؛ هي هنا مدعوَّة لقضاء أسبوعين في ضيافة آدم وزوجته روز.

خطوات قليلة وأصبحت في مواجهة الباب تتأمل الدمية القماشية، دقت دقتين متتاليتين ففتح آدم. استقبلها بحماسة وحمل الحقيبة منها مفسحًا لها الطريق لتدخل. من خلفه ظهرت شقراء تبتسم بتردُّد، خمنت كاميليا أنها روز.

كما بزغ المشهد في خيال أولجا فجأة، اختفى دون مقدمات. عادت لواقعها. لم تعرف كم مضى من وقت منذ دخول رفيقها العاصف إلى غرفته، لكن من معرفتها الطويلة به تدرك أنه لن يغادرها إلّا بعد ساعات، سيقضيها غالبًا في الإنصات لغناء ماريا كالاس، المرأة التي يمثِّل صوتها الموسيقى التصويرية المصاحبة لحياته كلها؛ كأنه لا يمكنه العيش من دونه. يتنقل بين أدوارها: «فلوريا توسكا»، و«مدام بترفلاي»، و«نورما» و«كارمن»، لكن مشهد الموت في «لا ترافياتا» يأسره على نحو خاص. مع الوقت، صارت أولجا تنزعج من الصوت الساحر، وتضيق بصاحبته المتوفاة منذ عقود.

«هل تنمو أشجار الماجنوليا في سياتل؟». خطر السؤال ببالها فجأة، ففضَّلت التأكد من هذه التفصيلة لاحقًا.

التقطت حقيبة يدها وقرَّرت الخروج لشرب بيرة باردة في أحد المقاهي المنتشرة على ضفة الفلتافا. لطالما ساعدها الجلوس وسط الناس على تجديد أفكارها. أحب نصوصها إليها بزغت بذرتها الأولى في مقهى «سلافيا» أو «اللوفر»، أو بينما تمشي بمحاذاة النهر، أو تجلس في مقهى ملاصق له.

عازف يحدق في أصابعه

عازف البيانو، ولنختر له اسم ساندور، أجفله صوت باب غرفته وهو يُصفَق خلفه.

لم يتعمَّد إثارة كل هذه الضجَّة.

أسدل الستائر، فإذا بالغرفة فضاء من ضباب كثيف، والمساء كأنما حل فجأة. تمدَّد فوق سريره، وحدَّق في السقف الرمادي. تلاشت أصوات الخارج. اقتحمته لذة غريبة عليه؛ لذَّة قديمة مختلسة من ماضٍ لم يعد له وجود؛ ماضٍ ربما لم يوجد قط.

«حُر في عريني والعالم محبوس خارجه!». تمتم في سرِّه، فتضاعفت لذته. لم يقصد إزعاج أولجا؛ يعرف أنها مشغولة بقصة تكتبها عن ناجية من مذبحة ما. يلاحظها من وقت لآخر منهمكة في تأملاتها أمام شاشة الحاسوب؛ تكتب قليلًا وتشرد غالبًا، فلا يسألها عن شيء.

لا تطيق أحدًا بجوارها أثناء الكتابة. في ما سبق كانت ترافقها تدريباته على البيانو بل وتلهمها، الآن وفي حالته هذه يحاول ألا يكون مرئيًا طالما تكتب، وفي المقابل تتصرَّف هي ككائن أثيري وقت انغلاقه هو على ذاته. حين أغلق غطاء البيانو بعنف وخبط قبضته في خشبه لم يكن واعيًا لما حوله.

أغمض عينيه وشد الغطاء وحاول النوم.

لا يكف ساندور – مؤخرًا– عن التحديق في أصابعه، لم يعد فقدان القدرة على العزف هاجسًا محتملًا إنما واقع مقيم. اعتاد رفع يديه عن مفاتيح البيانو وتحريك أصابعه في الهواء فتطاوعه بمرونة تدهشه، لكن ما إن يضعها مجدَّدًا على المفاتيح حتى تتخشَّب ولا تعود قادرة على الحركة.

أثناء نومه، يعاوده حلم يشعر به كحقيقة من فرط تكراره. يخرج من مبنى عتيق في شارع شبه معتم ملتفٍ حول نفسه كأمعاء أرنب. الشارع مرصوف بأحجار مصقولة، يسمع ساندور وقع خطواته عليها كدقَّات قلب عملاق، لا أحد غيره في هذا الفضاء، ومع هذا يثق من أنه مُطَارَد. في انحناءة من انحناءات الشارع المفاجئة يظهر له ثلاثة رجال بملابس داكنة، يقتربون منه ويضربونه. تتركَّز ضرباتهم على أصابع يديه. وجوههم غاضبة وتفانيهم في مهمتهم يدعو للإعجاب.

ينتابه إحساس بالغرق، لا يعود قادرًا على التنفس، يُهيَّأ له أن أصابعه مفرودة على سطح رخامي، وأن مطرقة ضخمة في طريقها لتهشيمها، مطرقة لا تصل إلى غايتها وإن كانت تلقيه في هول ترقب وانتظار دائمين.

من سنوات شبابه، يطل عليه وجه امرأة حلوة، عيناها تحديدًا بالغتا الجمال، معبِّرتان وذكيِّتان. يغمره ارتياح مؤقَّت إلى أن يتذكَّر صرخة ندت عنها، وهلع شوَّه ألق عينيها.

أمام كوخ على أطراف غابة «خيمكي» كانا يسيران معًا، الأشجار القريبة تذكِّر بكائنات تقتلها العزلة، وأصوات طيور غامضة تؤطِّر خطواتهما ثم امتدت يد لتسحب المرأة بعيدًا عنه، وقبضة قوية هشَّمت وجهه. قبل أن يغيب عن الوعي، وصلته تراشقات غاضبة واتهامات متبادلة بلغة تزعجه إيقاعاتها وموسيقاها.

في المستشفى، حيث وجد نفسه حين أفاق، كانت الضمادات تغطّي وجهه وأصابعه. لم يرَ المرأة بعدها، ولم يعرف ماذا حدث بينها وبين زوجها. لم ترد قط على رسائله العديدة، حتى عندما كتب لها أنه سيغادر مدينتها ويرغب في لقاء أخير معها.

والآن، يتراءى له طيفها بينما يتحسَّس الندبة الباقية تحت عينه اليمنى ويفكِّر في أصابعه، وهو راقد في فراشه. يخايله وجهها مموَّهًا ببخار ماء أو مختفيًا في سحابة من دخان يتلاعب بالملامح فلا تنكشف له بسهولة.

يخطر له أن المرأة من اختراعه وأن الحادث مستل من فيلم قديم غاب عن ذاكرته، أو رواية قرأها وتوارت تفاصيلها الأخرى في زاوية معتمة من رأسه. يريحه هذا الخاطر، لكنه لا يفسِّر الندبة أسفل عينه، ولا أثر الكسر القديم في أنفه.

يصحو من نومه ليجد أن ظُلمة الغرفة ترسَّخت. يضيء المصباح المجاور لفراشه، ويعتدل جالسًا. هدوء تام. لا بد أن أولجا خرجت. يستدعي لقاءه الأول بها، تزوره الذكرى كشذراتٍ وشظايا:

حفل رسمي في مبنى بأعمدة مهيبة ومنحوتات فخمة وجداريات مثيرة للخيال. شواء في الحديقة و«بوفيه» مفتوح في الشرفة؛ شمبانيا ونبيذ، وضيوف من جنسيات مختلفة. مرح وصخب، كؤوس تُقرَع وموسيقى تشكِّل خلفية صوتية لما يجري.

يقف، مرفقه الأيسر مستند إلى طاولة مرتفعة، ويده اليمنى تحمل كأس شمبانيا، وفي الجهة الأخرى من الشرفة المزدحمة، كانت ثمة عينان زرقاوان تتأملانه بابتسامة مُشعة.

لم يتعارفا كما يفعل غريبان، بل مثلما يجدد صديقان حميمان

علاقتهما، بعد أن انقطعت بهما السبل لسنوات. يدهشه الآن تذكر أن جسديهما كانا شبه ملتصقين معظم ما تبقى من الحفل، وأنها تحسَّست، مرارًا، الأثر الباقي من الكسر القديم في أنفه، والندبة أسفل عينه.

كان وجهها مغلفًا بتعاطف، تخالطه لمحة من إحساس مبهم بالذنب، أما هو فكان سعيدًا وحيًّا كما لم يكن من قبل، أو بالأحرى تمامًا كما كان في ذلك الصباح البعيد، مع جميلة العينين ذات الملامح المتبخِّرة من ذاكرته، أثناء سيرهما - رغم برودة الجو - أمام الكوخ النائي، حيث غابة ممتدة وهواء مثلَّج يكاد يجمِّد أغصان الشجر.

هل ذهبت أولجا معه إلى شقته بعد الحفل؟ تراوغه التفاصيل. يتذكَّر سيرهما معًا وذراعه تحتضن كتفيها في شارع ضيق بالمدينة القديمة، يستحضر جسديهما عاريين في سريره وإن كان لا يعرف التاريخ أو المناسبة.

لطالما استفزَّه شبقها وتحدَّاه، بدا جوابًا مذهلًا على عشرات التجارب المحبِطة، على انتصابات صباحية لا تُحصى وشوق إلى ما لا يستطيع تحديده أو تخيله.

كانت عارية لا تزال حين أراحت رأسها على صدره، وسحبت منه سيجارة أشعلها لتوِّه لتشاركه تدخينها. يخامره الآن شعور أنهما لم يكونا وحدهما تلك الليلة، شاركهما الفراش جميلة العينين وزوجها الغاضب. أكثر من مرة اختلطت عينا أولجا المتسعتان لذةً واستمتاعًا بعينين قديمتين اتسعتا هلعًا حين فوجئتا بوجه متجهِّم وشتائم هستيرية. لاحقه أيضًا صوت زاعق ووقع لكمات تُحطم وجهًا يشبه وجهه.

في محاوله لاقتناصه من أفكاره وجذبه للحظتهما المشتركة، أخذت أولجا تقبِّل أصابعه وتمصها واحدًا تلو الآخر، كما قبَّلت الندبة أسفل عينه وأثر الكسر القديم في أنفه.

صارهذا التقبيل الطقسي، المصحوب بدموع غير مبرَّرة، شعيرة دائمة في الجنس بينهما، مثله مثل إغماضه لعينيه في لحظات الذروة كي يطرد من رأسه منظر عينين مختفيتين خلف نظرة هلِعة - تطل عليه من ماضيه - لصاحبة الملامح المتبخرة التي سمّاها «فيفيان»، وأخبرها أنها خلاصة كل النساء، والحقيقة أنه لم يرغب في مناداتها باسمها المقترن لديه بزوجها وبعالم معلَن لا يضمه ولا يعترف به لكونه حبيبًا سريًا.

قال إن لها عينيّ «فيفيان لي»، وحين اعترضت بأن لون عينيها أزرق في حين أن عينيّ «لي» خضراوان، أكد لها أن لونهما الأصلي أزرق تم تغييره تقنيًا إلى الأخضر في «ذهب مع الريح» ليلائم شخصية سكارليت أوهارا كما كتبتها مارجريت ميتشيل. لم يكن متأكدًا من مدى دقة المعلومة، لكنها راقته حين قرأها في مجلة ما.

الآن يختلط اسما فيفيان وسكارليت في ذهنه ويدلان على من ترافقه نظرتها كخرافة لن يعلم أبدًا حقيقتها ولا مدى واقعيتها.

علاقته بها تأتيه، دومًا، محاطة ببخار ماء كثيف، يشبه ذلك البخار الذي كان يغطِّي الحمام في طفولته، بحيث يحجب المرآة والحوائط، فلا يكاد يرى نفسه.

كبرق لم يلبث أن تلاشى، استعاد أن أولجا حين التقته في منتصف طريقه إليها ليلة الحفل بادرته بـ«وحشتني جدًا!». وأن هذا بدا له وقتذاك طبيعيًا بشكل ما. قال لنفسه بينما يعتدل أكثر في جلسته على السرير، إنه يحب الكاتبات والفنانات لاندفاعهن ومخالفتهن للقواعد المتبعة من الآخرين. مَن غير كاتبة يمكنها مفاجأة رجل تلتقيه للمرة الأولى بتحية مماثلة!

يحب فيهن أيضًا خيالًا جامحًا يدفعهن للإيمان بأبعد الأكاذيب عن الواقع، والنظر إليها كاحتمال وارد: موهبة العيش في الوهم.

من وجهة نظره، تتمتَّع أولجا بموهبة مضاعفة في هذه النقطة، لكنه - في السابق - كان له مكان محفوظ في عالمها الوهمي، لن يكون مبالِغًا، لو أكد لنفسه أنه مَثَّل مركز هذا العالم، أما الآن، فيكاد يثق من أنها تهرب من وجوده الثقيل في حياتها إلى عوالم وهمية جديدة.

هز رأسه يمينًا ويسارًا كأنما يرفض فكرته الأخيرة. لم يعد يحب رثاء الذات بعد أن ضيَّع طفولته غارقًا فيه:

طفل وحيد يعيش مع والده بمفردهما بعد أن هجرت الأم البيت دون كلمة وداع. أخبره أبوه أن أمه في الجنة، وأنها ستزوره في الأحلام، وستتابع تقدمه في دروس الموسيقى من خلف السحاب، فقضى وقته متخيلًا وسيلة مثالية توصله إلى السماء، ومتأملًا صفحتها الزرقاء المزركشة بالسحب والغيوم، علَّه يلمح الوجه الحبيب الغائب يتابعه عن بعد.

في تلك السن، بدت السماء في المتناول رغم بعدها، إذ لاحت الأشجار السامقة كدَرَج موصل إليها.

آمن الطفل ساندور أن كل ما يلزمه هو إتقان تسلق الأشجار، وما عدا هذا تفاصيل هامشية. تسلق شجرة كستناء، كتدريب أوَّلي، ولم يستطِع النزول. ظل فوق أحد أغصانها، حتى عثر عليه والده واصطحبه إلى البيت. أوقفه أمام مرآة طولية في الصالة وطلب منه، رفع كفيه أمامه.

«هذه الأصابع هي أغلى ما تملك!»

بأداء درامي لم يكن يستغنى عنه، أخبره أبوه، أن مستقبله معلَّق بأصابعه، وأن الشيطنة وشغل القرود سيعرِّضانه لخطر الإضرار بها، وبالتالي ستحزن أمه في عليائها لأنها لا ترغب في شيء أكثر من سماع أنغام تدريباته على العزف بينما تجلس فوق السحب مؤرجحةً ساقيها. بالطبع لم يصف الأب جلستها على هذا النحو أو بهذا التفصيل، لكن

ساندور لم يكن بإمكانه تخيل وجود شخص في السماء إلّا جالسًا فوق السحب بينما يؤرجح ساقيه مستمتعًا.

لم تثنه كلمات أبيه عن حلمه بالصعود إلى السماء عبر الأشجار، لكنه فقط أحاط محاولاته لتسلقها وكذلك سقوطه المتكرِّر من فوقها بالكتمان، ولم يردعه عن الأمر سوى جارتهما.

المرأة التي أصبحت ضيفة شبه دائمة على بيتهما، تجلس بالساعات مع والده، وتجهِّز لهما الطعام، وتجالس ساندور حين يتأخَّر الأب في العودة مساءً، لم تضيِّع فرصة للتلميح للصغير بأن أمه هجرت أسرتها وأنها تعيش في مدينة أبعد من السماء.

في البداية لم يفهم الابن ما ترمي إليه الجارة، لكن المعنى وصله في النهاية. حمّل نفسه مسؤولية هرب والدته، خمّن أنه لم يكن جيدًا بما يكفي لدفعها للبقاء معه. دون قصد منها، دفعته كلمات الجارة للتخلي عن تسلق الشجر، وللتماهي مع حلم والده بأن يجعل منه عازف بيانو شهيرًا.

لم يعد هذا حلمًا للأب وحده، بل محور حياة ساندور. أن يصبح عازفًا مهمًا يعني أن تصل أخباره إلى أمه يومًا ما، أن ثمة أملًا في لقائها من جديد.

لم يتوقَّف الأب أمام تحول ابنه المفاجئ، حاول فقط منعه من إجهاد نفسه بالتدريبات، طمح إلى تمرينه على الاستمتاع بالتعلم، أن يصير هو والبيانو كيانًا واحدًا منسجمًا.

لم ينتبه إلى أن صغيره اعتاد الوقوف أمام المرآة الطولية ورفع كفيه أمامه لتأمل أصابعه الرشيقة. وقتها لم يكن يحدِّق فيها بهلع، بل يتفحصها كأنما ستخبره بالمدى الذي سيصل إليه يومًا، وستبوح له بأنها ستقوده إلى أمه في مهربها البعيد، وتحمله إلى عوالم لم يحلم حتى ببلوغها.

لم يعترفساندور، حتى لنفسه، بأن جزءًا من جاذبية المرأة التي سمَّاها «فيفيان» في عينيه يرجع لكونها أمًا لصغير، رآها لأول مرة تتنزَّه معه في حديقة «جوركي» بموسكو. حين توطَّدت علاقتهما، لاحظ حرصها على ألّا تشير إلى زوجها وطفلها وهي معه، حاول مرارًا جرَّها للكلام عن ابنها تحديدًا، لكنها كانت بارعة في التهرُّب مما لا تريد مناقشته.

أخبرته يومًا أن الصوت كان المدخل لتعلقها به. صوته المشروخ قليلًا هو أول ما جذبها إليه. الصوت ذو النبرة الكسول - كأن صاحبه استيقظ لتوه من النوم - مَثَّل وعدًا بمتعة قصوى ولذَّة لا حدود لها، وكان شمسًا دافئة حوَّلت موسكو بطقسها بالغ البرودة إلى جزيرة تغمرها أشعة الشمس بلا انقطاع. كانت تنتظر مكالماته الهاتفية بشوق أكبر من شوقها للقاءاتهما المختلسة، عبر الهاتف اعتادت الإصغاء بكل حواسها للهمس المغوي المنبعث من الطرف الآخر، همس يحوِّل الشخص بكامله إلى محض صوت متشوِّق مثير.

ما لم تخبره إياه أن زوجها كان صديقًا للصمت، حتى في أكثر لحظاتهما حميمية. لطالما كان الجنس بينهما أداءً صامتًا، لا مجال فيه للهمس أو حتى اللهاث، فقط سكوت تام. لا يعني هذا أنه كان خاليًا من المتعة، لكنها لطالما اشتاقت لتعبير أكثر صخبًا عن الرغبة والحب، للمس تأثيرها على شريكها عبر تغير اختلاجات صوته وانقطاع أنفاسه وتحول النبرة الواثقة المسيطرة عادةً إلى لهاث متسارع مبحوح.

الصوت بالنسبة لها، كان الوسيلة المثلى لقياس المشاعر والإعلان عن الاشتهاء، ونبرة ساندور المفعمة بالعاطفة، تلك المخصصة لها وحدها - كما لاحظت - كانت علامتها الأولى على تعلقه بها.

***

لم يعِش ساندور في مدينة ساحلية قط، هو متأكد من هذا!

نشأ في مدينة يشقها نهر، ولا يطيق العيش في مكان خالٍ من الأنهار، ربما هذا من أسباب حبه لبراغ. الفلتافا يشعره بالأمان، كأنه رحم يشتاق للعودة إليه والغرق فيه.

يبزغ في ذهنه الدانوب كنهر يتهادَى ماؤه في مدينته الأم، تتراكم صور ومشاهد قديمة في ذهنه: عمارة مهيبة من عصور مضت، مواصلات عامة متهالكة، مقاهٍ متقشفة، ومجمعات استهلاكية لا تعترف بالكماليات الفارغة.

غير أن النهر هو ما يجذبه للمكان، وما يشكِّل عمودًا فقريًا لحياة تركها خلفه، وذكريات تتلاعب به وتسخر منه.

فكر مرارًا في العودة للاستقرار في مدينة طفولته وشبابه، لكن زياراته العابرة لها، خلفت في حلقه مرارة مقيمة، بدا كل شيء هناك مغايرًا الفكرته السابقة عنه بل ومضادًا لها. لاح له مسقط الرأس كمدينة زائلة، اختفت من على وجه الأرض، وبقيت منها نسخة مهزوزة وباهتة، تُسَوَّق للسياح الغربيين في جولات بعناوين من قبيل: «رحلة إلى الزمن الشيوعي»!

جولات تُقدَّم المدينة من خلالها كمكان ذي ماضٍ رمادي، لم يعرف سوى المعتقلات، والطغيان، وبكاء المقموعين والضحايا. تُغيِّب هذه النسخة المتحيزة، سعادات ماضيه الصغيرة، وتفاصيل حياة يومية غمرها الدفء، وعالم حميم رغم ضيقه أو ربما بسببه، وتتنكَّر لتاريخه الشخصي الخارج عن سمات الكابوس المفترض.

ربما كان كابوسًا فعليًا، إلّا أن ساندور الطفل كان غافلًا عنه، إذ اقتصر عالمه على أبيه ورفاقه، والكثير جدًا من الموسيقى، وطيف أم تخفت ملامحها في ذاكرته كل يوم عن اليوم السابق له.

تخلَّص الأب من كل صورها باستثناء واحدة بالأبيض والأسود علَّقها في غرفة ابن رأى فيها امرأة جميلة بشعر فاحم وعينين واسعتين

التقطهما المصور المجهول في لحظة اندهاش، امرأة لا تشبه تصوراته عن من فارقته وهو لا يكاد يعي شيئًا عن العالم من حوله.

بفضل هذه الصورة الوحيدة، وتلك النظرة المندهشة، رسم ساندور «بورتريهًا» خياليًا لأم مفترَضة، تقودها الدهشة كجوهر تنبني عليه شخصيتها.

تعويضًا للغياب الفادح لصور والدته عن البيت، جمع صورًا متنوعة لماريا كالاس، مغنية الأوبرا اليونانية، بروز بعضها وعلقه في أماكن بارزة. لم يعترض الأب، وربما لم ينتبه إلى أن ابنه رأى في كالاس البديل للمرأة الغائبة والمغيَّبة عن عالمه.

لم تكن تشبه أمه إلّا في لون الشعر والعينين، لكنه رأى فيها ملمحًا من فكرته عن أمه كما تبدت له عبر صورتها الوحيدة المعلقة في غرفته: ثمة هشاشة مخبأة بعناية خلف واجهة من الثقة بالنفس، وحزن فادح يخيم على كلتا المرأتين كهالة من ضوء قاتم.

في حالة والدته، كان هذا يخالف كلام أبيه القليل والمتباعد عنها. لطالما صوَّرها كامرأة قوية مرحة تتبع ما يمليه عليها قلبها وغرائزها، غير أن صورتها الوحيدة بالأبيض والأسود تحكي قصة مختلفة فضَّل ساندور أن يصدقها.

لم يتزوج أبوه بعدها، وإن لم تخل حياته من النساء، بعضهن اختفى سريعًا، وقليلات دُمن أكثر. كان ساندور يعرف بالعابرات بطرق غير مباشرة، إذ حرص والده على عدم إرباكه بتفاصيل علاقاته، أما من استمررن أكثر من غيرهن، فكان يتعامل معهن بحذر، باستثناء الجارة التي فرضت نفسها ضيفة شبه دائمة على البيت حتى يئست واختفت كالأخريات.

حديقة الورد

في جلستها على المقعد الرخامي بالحديقة العامة، تتلذذ كاميليا بقبلات أشعة الشمس لبشرتها، تتشرَّب الأصوات المتداخلة حولها: صوت ارتطام إطارات سيارات - بعيدة نسبيًا - بالأسفلت، نفير شاحنة يشبه سعال شخص بالغ المرض والإعياء، أصوات بشرية مندغمة وغير واضحة، تغريد طائر لا تعرف اسمه، لكن صوته يصيب قلبها برعشة ملأى بالترقب والحماسة.

تغمض عينيها، فيتجسد في ذهنها بيت أشبه بقلعة فوق تل. لثوانٍ، تنجح في تشييده - في مخيلتها - من عدم. ينبني على مهل، ويواجهها مثل هيكل صلب معلق بين السحب، ثم لا يلبث أن يخاتلها، فيبدو كتشكيل من ضباب يهتز على خلفية داكنة، قبل أن يمعن في الغياب حد التلاشي، ويظهر بدلًا منه بيت أكثر ألفة في ضاحية هادئة، أمامه ينبعث شارع مُزنَّر بأشجار ماجنوليا مزهرة، ثم تتراص بيوت فخمة، البيت تلو الآخر، على جانبيه.

في الطريق إلي البيت الأليف المُشَيَّد في خيالها، تغيم السماء - التي كانت قبل برهة زرقاء - وتحتضن قرميده، ثم ترتسم بهدوء حديقة ورد مزهوة بألوانها وروائحها في فِنائه الخلفي.

يتبدى لكاميليا سور خشبي تتسلقه عرائش ورد أحمر، وتتوسطه بوابة قصيرة مواربة تقود إلى مَرجة هي كل ما يتضح - لأول وهلة - من حديقة يمتد معظمها خلف البيت.

أغلقت كاميليا البوابة خلفها، وصعدت ثلاث درجات ليواجهها الباب المزين بورود محفورة عليه كإطار بيضاوي داخل مستطيله. أعلاه دمية قماشية تبدو كطفلة معلقة في «فاترينة» عرض.

انفتح الباب لتجد نفسها أمام آدم بعد قرابة السنة على لقائهما الأول ومئات الرسائل الإلكترونية المتبادلة. من خلفه لمحتْ شقراء تصغره بسنوات، خمنَّتْ أنها زوجته روز.

وضع آدم حقيبة كاميليا جانبًا، حيّاها بحرارة مُقبِّلًا وجنتيها قبل أن يتنحَّى جانبًا كي تدخل، فيما استقبلتها روز بابتسامة مترددة وعينين فضوليتين.

أول ما لفت نظر كاميليا إلى جانب أناقة الأثاث، كان التحف الموزعة بذوق في أنحاء البيت: معظمها عُلب صغيرة خشبية وخزفية وفضية موضوعة هنا وهناك بفوضوية محسوبة. اعتبرتها كاميليا علامة إيجابية، لأن الهدية التي أحضرتها للزوجين كانت صندوقًا صغيرًا مزينًا بالصدف ومكسوًا من الداخل بالقطيفة الحمراء اشترته من «خان الخليلي» ومعه تمثال إيزيس المجنحة.

لم يخطر ببالها أنهما من هواة جمع العلب المشغولة بعناية والمنتمية لحضارات مختلفة، فقط اشترته لأنه أعجبها وانتوت شراء صندوق مماثل لنفسها بمجرد عودتها من السفر.

أحضر آدم، من فوق طاولة قريبة، طبقًا خشبيًا على هيئة ثعبان ملتف حول نفسه، قال إنه هدية من صديق كان في زيارة سياحية للأقصر قبل سنوات، وسأل كاميليا عن رمزية الثعبان في الحضارة الفرعونية، فلم

تجد ما تجيب به سوى أنه تميمة لجلب الحظ، شرد لثوانٍ مقيِّمًا إجابتها ثم هز رأسه دونما اقتناع. تأمل تمثال إيزيس المجنحة، ووضعه هو وصندوق الصدف بجوار الثعبان الدائري.

في الصالون، حيث تناولوا قهوتهم بعدها بقليل، كانت هناك ألعاب أطفال، موضوعة كأنها جزء من ديكور المنزل. قالت كاميليا لنفسها: «ربما تخص طفلهما!»، مع أن آدم لم يذكر قط أن لديه أطفالًا.

بينما يدردشون في موضوعات آمنة أثناء تناول القهوة، خطفت الزينة المزركشة للسلم الداخلي المؤدي للدور العلوي بصر كاميليا؛ الألواح الخشبية البيضاء لإطار السلم كانت مزينة بأقمشة ملونة بعضها لامع كأنه بقايا عيد ميلاد طفل.

صخب الألوان وتعددها، لم يقلل من تناسقها، كما لم يتناقض مع الذوق الكلاسيكي الهادئ للبيت كله. أثناء صعودها للحجرة المخصصة لها بالطابق الثاني، انتبهت كاميليا إلى أن الزينة، غير واضحة المعالم من بعيد، عبارة عن عدد كبير من الدمى القماشية المربوطة معًا والملتفة بفن على الأعمدة الخشبية لإطار السلم.

غرفة النوم المخصصة للضيوف كانت هادئة ومقتصدة الديكورات. ستائرها زيتوني فاتح وسجادتها بنية. على الكومود دورق ماء به شرائح ليمون، والهواء معبَّق بمزيج من روائح بودرة «التلك» وشامبو «جونسون» للأطفال ورائحة ثالثة يصعب تمييزها.

الحمام الملحق بالغرفة، ضم أكبر كم رأته كاميليا مجتمعًا من المنظفات والمطهرات ومرطبات البشرة. الأنواع غالية الثمن ومختارة بعناية والفوط تكاد تشع من فرط النظافة والجدة.

وهي في ضيافة آدم تحول اسمها، على لسان روز، من كاميليا إلى كاميلا. بعد محاولتين للفت نظر مضيفتها كي تنطق الاسم بطريقة

صحيحة، استسلمت كاميليا. وفي كل مرة كانت تسمع فيها المرأة الأصغر تناديها بكاميلا يخيل إليها أنها تقصد شخصًا آخر.

«من حيث أتيتِ»، هل يزرعون الورد؟ هل لديكم سيارات حديثة؟ هل يمكنك السير في الشارع بلا غطاء رأس؟ أسئلة عديدة تشير إلى فضول روز نحو ذلك المكان الضبابي الغامض المُسمَّى «من حيث أتيتِ». في البداية كانت كاميليا تصحح لها: «مصر»، ثم توقفت عندما لاحظت أن روز لا تكاد تسمعها.

«لا تتأخري في الخارج، سنغلق البيت في العاشرة مساءً. من حيث أتيتِ هل أنتم معتادون على السهر لوقت متأخر؟».

تسأل روز، فيبدو سؤالها كاتهام.

«أحيانا نسهر».

تهز رأسها باهتمام كأن إجابة كاميليا ساعدتها على حل لغز استغلق طويلًا على فهمها.

***

في يومها الثاني في ضيافتهما، قاد آدم كاميليا إلى الحديقة الخلفية بينما تجهز روز الإفطار. باستثناء شجرة ضخمة تتوسط المكان ومعلق بأحد أغصانها أرجوحة، لم تجد سوى الورود؛ أنواع عديدة منها: ورد ناري، هايبريد تي، سينتوفيليا، دمشقي، إنجليزي.

«الورد زهرة روز المفضلة!»

قال آدم بلهجة اعتذارية لم تفهم مبررها، وهز الأرجوحة ببطء.

«روز مكتئبة وزواجنا يمر بفترة اضطراب».

خطر لكاميليا لاحقًا أنه دعاها لزيارتهما من أجل روز، ربما توقع أن

يضفي وجودها بعض الإثارة على حياة زوجته: صديقة افتراضية قادمة من بعيد وتنتمي لثقافة مغايرة!

هل أُحبَطت روز حين اكتشفت أن ضيفتها لا تختلف في مظهرها عنها كثيرًا؟ هل توقعت شيئًا وفوجئت بآخر؟ لا تعرف كاميليا، لكنها متأكدة من فضول مضيفتها نحوها؛ فضول مهذب خجول، لكنّه عميق وواضح. سألت عن كيفية تعارف زوجها على المرأة القادمة من بعيد، وبدت مندهشة حين أكدت الأخيرة ما سبق وذكره آدم من أنهما لم يلتقيا قبلًا سوى مرة واحدة.

ذكرت روز حينئذ أنها كان من المفترض بها السفر معه إلى براغ في رحلته تلك، وألغت سفرها في آخر لحظة بسبب ظرف طارئ.

الصور المعلقة على الحوائط لم يكن بينها ما يخص عائلة آدم، لم تعترف حوائط البيت سوى بوالديّ روز وشقيقها، إضافةً إلى الكثير من صور روز في مراحل عمرية مختلفة. أمام عدسات الكاميرا كان ثمة روز أخرى مشرقة ومبتهجة بعينين لعوبتين وروح منطلقة. روز مختلفة لا علاقة لها بالمرأة التي استيقظت مرتجفة هربًا من حلم مغلف بالبياض.

في الحلم، كان الثلج يتساقط بغزارة. كل شيء مغلَّف بالأبيض: الأشجار في الخارج، الشارع بكامله وحديقة البيت.

من نافذة صغيرة أشبه بكوة في الحائط وقفت روز تتفرج على عالم أبيض بدا لها هشًا متراقصًا على حافة التواري. أحست أنها تواجه الجمال في معناه المطلق، جمالًا ذابلًا يورث الأسى كالغياب.

شيء ما أخافها، هي دائمًا هكذا في أحلامها، تخاف مما لا يخيف أحدًا غيرها، قد ترعبها زهرة غريبة الشكل، أو وجه يبدو سمحًا، فلا تفهم - حين تستيقظ - ما سَبَّب لها كل هذا الرعب!

كانت تتأمل كونًا أبيض لا تزال، حين شعرت بيد تربت على كتفها بهدوء. التفتت لتجد امرأة رشيقة تستدير للجهة الأخرى، بحيث لم تتمكن هي سوى من رؤية ظهرها وفستانها الأبيض الطويل، كانت ثمة طرحة باللون نفسه ملقاة بإهمال متعمد على رأسها. بظهور المرأة تَلوَّن كل شيء بمسحة خفيفة من البني المحمر أشبه بتأثير «السيبيا» في الصور القديمة، فأحست روز بأنها تمشي داخل صورة فوتوغرافية تعود لبدايات القرن العشرين.

تبعت الغريبة بلا تفكير، سارت خلفها في أرجاء البيت، وانتبهت إلى أنه بيت طفولتها، أعجبها الجسد الريان والخطوة الراقصة للسائرة أمامها، لكن قلبها كانت تعتصره قبضة الخوف.

خرجت خلفها، وهبطت الدرجات الأربع الموصلة للحديقة الخلفية، وفجأة استدارت الغريبة وواجهت روز. كانت أطراف الطرحة تغطي معظم وجهها، ثم أزاحها الهواء قليلًا لتكشف عن وجه بعين دائرية في المنتصف أسفل الجبهة، وفم أشبه بفم الخنزير، لا أنف ولا ملامح أخرى. النظرة في العين الوحيدة كانت ميتة، وخطر لروز أن هذا وجه الموت، وأنها حدَّقت فيه ففقدت جزءًا من روحها، ماتت قطعة منها وتجمَّد فص من فصوص قلبها.

بعد استيقاظها بساعتين، وبينما تسترخي في حوض الاستحمام المملوء بماء دافئ يعبق برائحة الفانيليا، وجسدها مغطى بفقاقيع الصابون، شعرت روز بارتياح لأن ما مرت به الليلة السابقة كان حلمًا، ثم استولى عليها إحساس فادح بالخسارة والألم لأن هذا الوجه الميت انحفر في ذاكرتها وأصبح جزءًا من واقعها لن تنساه بسهولة.

أحست بالغربة في بيتها، خُيِّل إليها أن الغريبة بطرحتها وفمها الخنزيري تحيط بها، وتتعقبها من غرفة لأخرى.

كانت وحدها بالمنزل، آدم اصطحب كاميليا في جولة بالمدينة، بينما فضّلت هي عدم الذهاب معهما بحجة إصابتها ببوادر صداع نصفي، والحقيقة أن كاميليا اختارت ثوبًا أرجوانيا للخروج به، وروز لا يمكنها البقاء في صحبة هذا اللون لمدة طويلة، وتتحاشاه ما استطاعت.

تمنت لو أنها رافقتهما رغم اللون المخيف. مؤكد أن الخروج وتغيير المنظر، كان سيحررها من أثر حلمها الثلجي، كما أن مراقبة ملامح الدهشة على وجه كاميليا حين ترى شيئًا جديدًا عليها كانت لتسعدها. ثمة طفولة معدية ومحرضة في الطريقة التي تتعامل بها ضيفتهما مع العالم من حولها.

***

من بين كل الهدايا المحتملة اختارت كاميليا لروز تمثالًا لإيزيس ربة الخصوبة والنماء، لم تكن وقتها تعرف شيئًا عن طفلة حاضرة بغيابها، ولم تكن روز قد باحت لها بمحاولاتها غير الموفقة للحمل.

بنهاية أسبوعها الأول في ضيافتهما، جرؤت على سؤال مضيفتها عن الأرجوحة في الحديقة والدمى وروائح الطفولة المسيطرة على أجواء البيت، فردت الأخيرة بأنها تحب رائحة بودرة «التلك» وكريمات وشامبوهات الأطفال. صمتت لبرهة ثم حكت لكاميليا بتردد واقتضاب عن صغيرة رحلت في الخامسة من عمرها، فندمت كاميليا على تطفلها.

كانت روز تأخذ وقتها في ترتيب الدمى والألعاب، تستخدم شامبو الأطفال في غسل شعرها وتنثر بودرة التلك في فضاء غرفتها. لمحتها كاميليا أكثر من مرة تحرك ذراعيها المعقودتين كمن يهدهد طفلًا، يحمله، لينام، فأسرعت مبتعدة كي لا تتطفَّل على خصوصياتها، كما رأتها مرات من النافذة وهي تهز الأرجوحة، في الحديقة، كمن يؤرجح طفلًا لا مرئيًا.

صحيح أن الصور العديدة، لروز ووالديها وشقيقها، الموزعة على الحوائط، أو المرتبة بفن فوق طاولة جانبية، لم يكن بينها صورة واحدة لطفلة، لكن في دُرج، نادرًا ما يُفتَح، كانت هناك صورة مخفية لروز في طفولتها، بشعر أشقر وإطلالة مشرقة، وهي تقبض على رسغ طفلة أصغر بنظرة مترددة كأنما ترغب في الفرار من أمام الكاميرا عند أول فرصة.

صغيرة، تدعى فيوليت، عبرت سريعًا. اعتادت أن تتبع روز كظلها، وتشاركها الغرفة ومحبة الأبوين، وفي ليالي الشتاء الطويلة، والأجواء العاصفة، كانت تتسلل للنوم بجوارها، كقطة وديعة تتمسح في صاحبتها.

والآن، تسكن أحلام روز، وتُخيِّم على حياتها محولةً إياها إلى حياة تحمل بعضًا من أثر الواقع، والكثير من سمات واقع حلمي مختلق.

في أحلامها، نادرًا ما ترى روز نفسها امرأة ناضجة، في معظم المرات تكون طفلة تتحرك في عالم ألوانه مموَّهة تغمره الظلال، وفي يدها شقيقتها، ثم لا تلبث أن تختفي فيوليت كأنها لم تكن. مرة تكونان معًا في قطار مترجرج، خالٍ من الركاب، تنتقلان من عربة لأخرى، والضباب يتصاعد حولهما إلى أن تكف إحداهما عن رؤية الأخرى، وحين ينقشع الضباب، تجد روز نفسها تقبض على يد بلا جسد، تحاول الصراخ فيخونها صوتها، والعالم من حولها صمت تام.

ومرة أخرى، تكونان في مركب وسط مساحات شاسعة من الماء، ولا يابسة في الأفق، فكرة اليابسة نفسها تنتفي، ويسيطر على عقل روز أنهما وحيدتان في عالم مائي، تنشق المياه وتبتلع المركب والأخت، وتطفو روز وحدها على السطح، فيما ينغلق المحيط على نفسه، تاركًا لها هلعًا أخرس.

مهما تعددت الأرضية التي يجري عليها الحلم، تصحو مصحوبة بعينيّ فيوليت تستنجدان بها وبإحساسها هي بالعجز عن مد يد العون.

في معظم مناماتها، توقفت روز عند سن سبع سنوات، ولم تغادر قط بيت طفولتها، ذلك البيت الذي هجرته أسرتها عقب رحيل الصغيرة بقليل، في محاولة يائسة للهرب مما يمثّله وما يُذَكِّرهم به.

تفكر روز أحيانًا، أنهم لو بقوا في البيت لَما استحوذ عليها على هذا النحو، ولَما أصبح سجنًا لمناماتها.

ثمة حلم متكرر أكثر من غيره: روز تلهو في حديقة ورد، الورود كبيرة ومتفتحة، عبيرها يغمر كل شيء، والسكون مطبق كالعادة، حتى يقطعه طنين نحلة تمتص الرحيق من زهرة وتنتقل لأخرى، ثم تُسمَع استغاثات - من بعيد - بصوت فيوليت. تردد الصغيرة اسم روز باستعطاف وجزع دون أن يدل صوتها على مخبئها. تتعثر روز في جريها بين شجيرات الورد. تستحيل رائحته ستارًا ثقيلًا يمنعها من التقاط أنفاسها. يخيل إليها أنها تتعثَّر في شذى الورود وفي اللون، إذ يُصبح للحلم لون أرجواني يُخيِّم على الأجواء كضباب يخفيها عن نفسها.

ما أن تصير روز غير قادرة على رؤية جسدها، رغم وضوح معالم الحديقة الأرجوانية، حتى تبصر أختها راقدة بلا حراك ومغطاة بورود ذات سيقان طويلة وأشواك ظاهرة. وكما اختفى جسد روز، يغيب صوتها، بحيث لا تقدر على الصراخ. كروح محتجزة في قمقم يضيق باطِّراد، تتابع الجثمان المسجى أمامها، وهو يغيب في اللون المتكاثف، ويستحيل عالم حلمها تشكيلًا أرجوانيًا بالغ الدكنة، يخنقها بداخله.

في حديقتها الحالية، تقضي روز أوقاتًا طويلة، تهدهد الأرجوحة، أو تُشذِّب الورود، وتخلصها من أشواكها، وتتعمد قطعها بسيقان غاية في القصر لتضعها على سطح الماء في أوانٍ عميقة نسبيًا، أو تنثر بتلاتها في أطباق خزفية صغيرة تزين بها الطاولات.

قبل سنوات عديدة، طارت أرجوحة في الهواء، وسقطت صغيرة

ذات سنوات خمس ترتدي فستانًا أرجوانيًا. لم تصرخ أو تنتحب، سقطت صامتة، وركضت مَن لا تكبرها سوى بعامين، خوفًا من عقاب محتمل من الوالدين. هل دفعت الأرجوحة أقوى مما ينبغي؟ هل تكفي سقطة كهذه لإنهاء حياة وقلب حياة أخرى؟ لطالما طرحت روز على نفسها السؤال الأول، ولم يخطر ببالها السؤال الأخير.

لا تتذكر كم من الوقت اختفت في «الجاراج»، خرجت في النهاية على صراخ أمها حين اكتشفت جسد صغيرتها الهامد. لاحقًا ظلت روز في غرفتها ترتعش لا تفهم طبيعة ما حدث ولا أسبابه. لسنوات طويلة تالية سوف تنشغل بتخيل سيناريوهات بديلة تنطلق من تساؤل بسيط: ماذا كان سيحدث لو ركضت إلى الداخل لإخبار أمها بما حدث بدلا من الاختباء خوفًا من العقاب؟ احتاجت الأم إلى نصف ساعة قبل أن تقلق وتخرج إلى الحديقة للاطمئنان على ابنتيها. كم من الوقت احتاجته فيوليت كي تتسرب منها الحياة؟

في مفارقة قدرية ماكرة، وافق ذاك اليوم البعيد عيد ميلادها، لذا كانت الأم مشغولة في المطبخ بإعداد كعكة عيد الميلاد، بعد قضاء ساعات الصباح في تزيين المنزل بقصاصات مزركشة ودمى قماشية ملونة. زينة ظلت في مكانها حتى انتقلت الأسرة إلى بيت آخر وولاية أخرى بعد أقل من عام.

خفتت كثير من تفاصيل البيت الأول في ذهن روز بمرور السنوات ما عدا حديقة الورد بأدق معالمها، ودمى قماشية بألوان زاهية موصولة معًا، وملتفة حول خشب سلم داخلي يؤدي إلى الطابق العلوي.

قصة بالغة التعقيد

في البدء، كان هناك مقعد خشبي، في الباحة الأمامية لمتحف كافكا، الواقع على ضفة الفلتافا ببراغ!

على المقعد تجلس كاميليا. رأسها يميل للأسفل، وعيناها مثبتتان على المسافة بين قدميها المتباعدتين قليلًا!

كاميليا الجالسة بجوار آدم هناك، تختلف عنها في حياتها العادية. فلنقل إنها، في لحظتهما تلك، كانت في أقصى درجات هشاشتها وصدقها مع ذاتها. وكذلك آدم لم يكن هو نفسه بالضبط، بل نسخة منقحة منها، نسخة عالقة في مخاوف الطفولة وهواجسها.

في لحظتهما المشتركة معًا لم يكن هناك وجود لأحد خارجهما. اختفى العالم المحيط بهما وغرف كل منهما من هلاوسه وأسراره الأكثر عمقًا. كانت «روز» مجرد فكرة منسية، وكان زوج كاميليا طيفًا ضامرًا ومبهمًا.

في بيته - حين زارته كاميليا بعد لقائهما الأول بعام - تحول آدم في عينيها إلى شخص آخر، حاجز غير مرئي ارتفع بينه وبينها. لم يأت على ذكر جدته أو مخاوف طفولته، لدرجة خيل لكاميليا معها، أن لقاءهما الأول محض أوهام.

لم يكن فيه شيء من هشاشة طفل أحب «لافكرافت»، وخاف من عوالمه في آن.

كاميليا أيضًا بدت له مختلفة عن ذكرياته عنها. لم تعد امرأة غريبة فاجأته بأدق أسرارها، وأثارت دهشته بطريقتها في قول كل ما هو غير متوقع أو مألوف.

في سياتل بدوَا كأنما يتعارفان من جديد. مثّلت الحميمية القديمة تاريخًا مشتركًا، غير أنهما لم يعودا شخصين يتحركان في الفراغ، أو طيفين يهيمان في خيال كاتبة ستينية غارقة في أحلام يقظتها.

بطريقة ما، أصبحا شخصين منتميين إلى ظروف محيطة وواقع مـألوف. هو زوج لامرأة لطيفة وإن كانت غامضة ومزاجية، وهي ضيفة على بيتهما يزداد فضولها تجاه ما لا تفهمه.

خُيِّل إليها مرات أنها - رغم كل ما اطلعت عليه من أسرار آدم - لا تعرف عنه إلّا أقل القليل، كما لو كانت هذه الأسرار لا تمثله، ولم تشكِّل شخصيته المعلنة التي يصدِّرها للآخرين، وبالتالي فالبوح بها يُقرِّب من استمع إليها من طفل قديم اختفى، وحل محله رجل ناجح واثق من ثبات الأرض تحت قدميه.

انتبهت كاميليا، وهي في ضيافته، إلى أن كل ما ألقى به آدم في بئر عقلها من حكايات وحوادث، ينتمي إلى طفولته ومراهقته وأسلافه، ولا شيء تقريبًا يخص الرجل الذي هو عليه اليوم.

في حين أن معظم ما باحت هي به يتمحور حول حاضرها. صحيح أنها حكت عن الركلة القديمة وعلاقتها بأبويها، لكن كل هذا مثَّل أرضية لشرح كيف تأثرت إلى هذا الحد بصورة أظهرتها وحيدة منهكة وأكبر من عمرها الحقيقي بعشر سنوات على الأقل، وأخبرتها أن حياتها سُرِقت منها دون أن تنتبه.

أرادت أن تشرح لآدم معنى أن يكتشف إنسان ما أن حياته سُرِقت منه، وأنه لم يعشها، بل عبر بها سريعًا كما لو كانت تخص آخرين!

لا يعني هذا أن الأمر مهم. في سريرتها توقن كاميليا أن لا شيء مهم، ومع هذا تشعر بالخديعة. تحاول إقناع نفسها أن العينين الذابلتين والنظرة الباهتة والوجه بالغ الإرهاق، كلها أشياء بلا دلالة. تمامًا مثل ركلة أبيها، فالركلة لم تعن أبدًا أنه يكرهها. لقد أحبها على طريقته، على نحو غامض وملتبس وسري يليق بثراء شخصيته وتعقيدها، أو هذا ما يحلو لها أن تؤمن به في أعماقها، بعيدًا عن كل ما تصرح به وتعلنه.

في أوقات صفائه النادرة، كان يصطحبها معه في مشاويره القريبة، يقبض على يدها، ويحكي لها عن طفولته والأعمال المتواضعة التي أُجبِر على العمل بها حتى يتمكن من إنهاء دراسته. كان يتوقف أمام أي «كُشك» يمران به ليبتاع لها زجاجة «شويبس ليمون». لم تجرؤ قط على الاعتراض، أو الاعتراف بأنها تكره هذا المشروب، وكل ما يمت للّيمون بصلة، خوفًا من أن يقضي اعتراضها على هدنة هشة اعتاد أبوها إعلانها من طرف واحد، وخرقها لأتفه الأسباب.

تجرُّع مشروب كريه والتظاهر بالتلذذ به كان ثمنًا، كاميليا أكثر من راغبة في دفعه، لشراء دفعات من السعادة المتقطعة، بصحبة أبيها.

في الزيارات العائلية القليلة للأقارب والأصدقاء، كان يبادر بطلب «شويبس ليمون» لصغيرته، حين تُسأل عمّا ترغب في شربه.

«مشروبها المفضل! طالعة لأبوها».

يبدو فخورًا لسبب تجهله الابنة المكتفية بهز رأسها تأكيدًا على كلماته. لم يكن لديها وقت للفهم ولا رغبة فيه. في لحظات مماثلة كانت ترى نفسها ذكية رشيقة سريعة البديهة، فمؤكد أن أباها الراضي عنها، ولو مؤقتًا، لا ينظر إليها - في تلك اللحظة - كـ«دبدوبة» بطيئة

الحركة والفهم، كما اعتاد أن يعايرها، حين يغضب منها. كان ينقلب عليها فيتحول البيت إلى زنزانة ضيقة ومعتمة.

البيت! «الفيلا» الموروثة! حبة عين دولت ومصدر فخرها، لم يكن بالضبط بيتًا لكاميليا. كانت تشعر بمنافسة مكتومة بينها وبين كل شيء في المكان؛ منافسة هي دومًا الطرف الخاسر فيها.

«ليس طبيعيًا أن يثير فيك بيتك، الرحم المعماري الذي يحتويك، مشاعر سلبية أو يورثك إحساسًا بانعدام الأمان». هكذا كانت كاميليا تردد لنفسها، فيبدو لها منزل طفولتها وصباها كهيكل مُقبض بعيد عن دفء البيوت. لم يكن إحساسًا وهميًا. عاشت سنواتها في «الفيلا»، وهي موقنة بأن الجدران والطاولات والتُحف والأنتيكات، أهم منها عند أمها.

لم تكن دولت تكف عن التذكير بأهمية هذه الأشياء لديها. غير مسموح لطفلتها بالاقتراب من الصالون الأوبيسون، أو لمس تمثال البرونز المزين بتوقيع نحات معروف، ويوم كسرت الصغيرة مزهرية من كريستال بوهيميا الفخم، تمنت لو أنها لم تولد قط، لأن أمها استحالت كائنًا هستيريًا لا سبيل لتهدئته، تتذكر كاميليا الصفعة الأولى واللطمات التالية لها جيدًا. انسحبت لغرفتها منهكة، ولم يُسمَح لها بالخروج منها لثلاثة أيام تالية.

بعدها كان عليها أن تستمع إلى أمها وهي تتحسر على المزهرية الثمينة من وقت لآخر، كانت دومًا تختتم وصلتها تلك بالإشارة إلى أنها تعشق الفخامة والجمال، فتتمنى صغيرتها لو كانت فخمة وجميلة دون أن تفهم بالضبط كيف يمكن لإنسان أن يكون فخمًا، بدت لها الصفة ملائمة فقط لأشياء في برودة الكريستال وتعاليه.

لسنوات عديدة، كان الجناح الخلفي غير المعتنى به من «الفيلا» ملجأ كاميليا الوحيد، تحديدًا الصالة شحيحة الإضاءة حتى في

النهار والشبابيك مشرعة. فيها اعتادت الجلوس للقراءة لساعات، أو الانغماس في لعبتها المدوِّخة، حيث تدور سريعًا حول نفسها حتى تميد بها الأرض، فترتمي على البلاط غير واعية لما حولها لدقائق، قبل أن يكف العالم عن الاهتزاز ويستعيد ثباته.

***

لم تستطع كاميليا قط فهم طبيعة الوضع الطبقي لأسرتها. «قصة بالغة التعقيد». لطالما اختصرت الأمر على هذا النحو. أمها حفيدة باشا كان يملك إقطاعًا ضخمًا في سوهاج، لكنها نشأت في عائلة ميسورة، لا أكثر ولا أقل، بعد أن أممت دولة يوليو معظم أملاك جدها.

عندما توفي والداها كان كل ما ورثته دولت منهما عشرين فدانًا في المحافظة الجنوبية، اعتادت أن تعيش على إيرادها السنوي وعلى ما تبيعه - حين تضطر - من مجوهرات أمها وجدتيها، محافظةً قدر الإمكان على صداقات عائلية موروثة من أيام العز، حتى وإن لم تعد ندًا - من الناحية المادية - لهؤلاء الأصدقاء.

أما والد كاميليا فينتمي لوسط اجتماعي أبسط. كان يحلو له وصف نفسه بالعصامية. كان ماهرًا في كسب النقود، وأكثر مهارة في تبديدها. لم تعرف له ابنته عملًا ثابتًا، كان يتاجر في السيارات. يشتريها محطمة، أحيانًا مجرد هيكل حديدي أو قطعة خردة، ثم يجددها ويبيعها بسعر أعلى. كان من المعتاد رؤيته يبدِّل السيارات كما يبدِّل غيره القمصان، من لا يعرفونه جيدًا، كانوا يظنونه يملك عددًا وافرًا منها، لم يستغربوا هذا لأن مظهره كان ينطق بالسلطة والثراء: ملابسه فاخرة، قداحة سجائره ذهبية وساعته رولكس. كما أنه يسكن في «فيلا» عريقة، لا يعرف إلّا الأقارب والأصدقاء المقربون، أنها إرث عائلي لزوجته سليلة الباشوات.

إضافة إلى هذا، كان يلعب دور الوسيط في صفقات تجارية، لا

تفهم كاميليا أبعادها، لكنها تدرك أنها مربحة لأن والدها - عقب إتمام كل صفقة منها - كان ينفق ببذخ ويقيم حفلات وولائم، تلعب فيها أمها دور المضيفة بإتقان فائق، تعقب هذا البذخ فترات عجفاء، موسومة بقلة المال، وتصاعد نوبات الغضب والشجار المتبادل. في تلك الأوقات، تنفق دولت على البيت من إيراد أرضها في سوهاج، أو تبيع قطعة من مجوهرات العائلة.

كانت لها طقوس خاصة مع المجوهرات. لطالما تابعتها كاميليا وهي تلعب بها، كطفلة تلهو بعرائسها، غافلةً عن كل ما حولها. تمسك قرطين مزينين بحجريّ ياقوت، وتحكي لابنتها عن مناسبات مهمة ارتدتهما جدتها فيها، «كانت وصيفة للملكة نازلي». تقول ثم تداري خيبتها لأن كاميليا لم تظهر الانبهار المرجو بعلو شأن جدة أمها. تعود للتربيت على سوار ماسي، أو قلادة مزينة بالزمرد، أو عقد من اللؤلؤ الوردي، قبل أن تمسك سلسلة مبرومة من الذهب البندقي، يتوسطها حجر «أوبال» مبهر، ثم يكتسي وجهها بالأسى. حفظت كاميليا الحكاية من فرط تكرارها.

«آخر هدية لماما من جدي». تقول دولت وتكمل ابنتها في سرها: «الأوبال شؤم. جميل، لكن شؤم».

بعد الهدية بأيام، تأممت أملاك العائلة، التي فقدت، مع الوقت، كثيرًا من مجدها السابق. لطالما تعجبت كاميليا، من تمسك أمها بسلسلة «الأوبال»، رغم حديثها الدائم عن كونها نذير شؤم، ورغم اضطرارها لبيع قطع أخرى ارتبطت بذكريات أسعد.

قبل بيع أي قطعة موروثة، كانت تلتقط لها عشرات الصور، بعضها للقطعة وحدها، والآخر لنفسها، وهي تتحلى بها. صور سوف تتحاشاها لاحقًا، لكن وجودها، يخفف من إحساسها بالذنب، لتفريطها في حلي أمها وجدتيها.

ثمة قلادة ظلت حاضرة أكثر من غيرها في كلام دولت، كانت تغطي معظم النحر، فيها ما يشبه حبّات حمص ذهبية، متصلة معًا بشبكة من السلاسل الرفيعة. لم تكن بتوقيع مصمم معروف، ولا تتسم بأبهة القطع الأخرى، بل كانت أقرب لـ«كردان» ريفي متنافر، رغم أناقته، مع ما يسم بقية المجموعة من رقي متعالٍ، لكن ظهور سعاد حسني، في إحدى حلقات مسلسل «هو وهي»، بقلادة مشابهة، أورث دولت حماسةً هائلةً: «كان عندي أخو الكوليه ده». «بُصي يا مِيليا، شوفي سعاد لابسة إيه! فاكراه؟».

لم تكن مِيليا، في سنوات طفولتها تلك، تتذكر أيًا من الحلي المباعة، ومع هذا اعتادت هز رأسها برزانة، تفسرها أمها، بأنها أسى على فقدان تحفة مماثلة.

وكل مرة تُعاد فيها الحلقة، تحملق دولت في تفاصيل قلادة سعاد الذهبية بذهول، كأنها تكتشفها للمرة الأولى، وتكرر كلماتها نفسها، وأحيانًا بالترتيب ذاته.

لم تفهم كاميليا قط سر تصميم أمها على التواصل مع صديقات، لم تعد بقادرة على مجاراة نمط حياتهن، مهما استماتت في المحاولة. ظاهريًا، لا مشكلة. تبدو دولت كأنما لا تزال منتمية للطبقة العليا، تسكن في «فيللا» فخمة بحي راقٍ، وتتزين بما تبقّى من مجوهرات ثمينة، وترتدي ثيابًا غالية الثمن، بفضل مهارة زوجها في كسب نقود لا تهتم بسؤاله عن مصدرها. تبدأ المشكلة، حين لا تقدر على السفر مع صديقات الطفولة، للتسوق في باريس أو لندن، أو للتصييف في إسبانيا أو إيطاليا أو اليونان.

مشكلة، تتعالى دولت عليها باستعراض مهارات أخرى ممثلة في قراءة فناجين القهوة وأوراق التاروت أو لعب البريدج.

كانت حريصة دائمًا على اصطحاب كاميليا معها أينما ذهبت. كان صوتها يرتفع وهي تناديها بـ«مِيليا» في الأوساط التي تتحرك فيها، وتبالغ في تدليلها إذا أحست بوجود أي جمهور محتمل. «ده وسطك الطبيعي، لمّا تكبري، لازم تتجوزي منه. كل معارف بابا إيدك منهم والأرض!». تقول دولت، فلا تجرؤ المدعوة «مِيليا» على الاعتراض بأنها لا تزال صغيرة، أو أنها لا تنتمي لهذه الطبقة ولا لهؤلاء المتكلفين والمتكلفات.

تلاحظ مبالغة أمها في التودد للجميع، كأنها مدينة لهم لإبقائهم إياها بينهم، هي وابنتها البدينة الشاردة دائمًا، والمحلقة في ملكوت وحدها. لكن مع فريدة، كانت دولت أكثر تلقائية وارتياحًا، وأقرب لشخصيتها كما تعرفها كاميليا، لا مداهنة ولا اصطناع. فارق العمر بينهما لا يقل عن عشر سنوات، ومن الصعب تخمين ماذا يجمع هذه الجميلة المدللة بامرأة تكبرها، ولا يبدو أن رابطًا ما يربطها بها.

لطالما ذكَّرت فريدة كاميليا بالكريستال، فالمرأة جميلة ولا بد من أنها فخمة بما أن دولت مغرمة بها؛ جميلة وفخمة ككريستال تشيكي لم يتفتت بعد.

كانت فريدة متزوجة حديثًا، حين توثقت علاقتها بدولت، وأصبح بيتها قِبلة مألوفة للمرأة الأكبر وابنتها، بيت فريدة، حيث الحفلات والحيوية والصخب.

تنصت دولت لها بشغف، وتنهمكان في حديث يستغرقهما، فتشعر كاميليا أنها فائضة عن الحاجة. تحكي فريدة أن الشغالة لم تأت أمس، فاضطرت هي لدخول المطبخ، وهناك رأت بُرصًا، حاولت قتله بالمبيد الحشري، فأخطأت ورشت المبيد على ملابسها.

«أكيد دي علامة يا دولت!»

تهز دولت رأسها موافقة، فتواصل فريدة أنها أجادت قراءة العلامة،

فتركت البرص حيًا، واتصلت بزوجها كي يحضر لها كتابًا معه من إنجلترا، عن الأبراص وما تمثله من رموز في الثقافات المختلفة، كي تفهم مغزى العلامة المرسلة لها من روح العالم، وتتصرف على أساسها.

تشعر كاميليا أن أمها خانتها بطريقة ما، لأنها لا تنظر لها بتواطؤ، كما تفعل حين تسخر خلسة من صديقات أخريات، على العكس تخص فريدة بكل الاهتمام الممكن، وهي ترتب أوراق التاروت كي تقرأها لها.

تنخرط فريدة في نشاطات أهلية عديدة، يتمحور معظمها حول الحفاظ على الأشجار والمساحات الخضراء في القاهرة، وتتحدَّث بحماسة عن أشجار معمِّرة نجحت جمعيتها في حمايتها من القطع. تثق كاميليا من أن أمها لا تهمها الأشجار المعمرة، ومع هذا تراها تنصت كأن لا شيء يؤرق حياتها سوى انحسار الأخضر من المدينة.

اهتمام دولت بحديقتها الخاصة سببه فقط قناعتها أن الحدائق المشذَّبة من ضرورات طبقتها، كانت تهتم بزهور ونباتات بعينها، وتعادي نباتات أخرى تراها أقل قيمة، ولا تصلح للتباهي بها أمام الزوار.

وكاميليا في ضيافة آدم وروز، طاردها مشهد واحد من طفولتها، كانت فيه في التاسعة تقريبًا، تنحني على إصيص مزروع فيه نبتة فول أزهرت لتوها. بقميص من القطيفة الكِريمي - مرسوم عليه دببة وردية - لا تكاد تُرى، وبنطال جينز أزرق، وشعر محكم الترتيب في ضفيرة تصل لمؤخرتها، كانت تحملق في الزهرة الرقيقة كأنها مَن خَلَقَها.

تتذكر كاميليا ذلك اليوم البعيد. كانت قد ادعت المرض لتتغيب عن المدرسة، وحين وافقت دولت على ضرورة ركون ابنتها للراحة، قضت الابنة في السرير ساعتين فقط، قبل أن تعلن أنها تحسنت، وترغب في الجلوس في الشمس لبعض الوقت. بنظرة متشككة لم تعترض الأم، وهكذا ضيعت كاميليا بقية اليوم في الحديقة، ممددة على ظهرها فوق

العشب ويدها تغطي عينيها وبجوارها إصيص الفول. وحين قامت في النهاية، وضعت الأصيص أمامها تتأمل زهرته بلونيها الأبيض والأسود.

لا تعرف لماذا لاحقتها، وهي في سياتل، صورة رأسها المنحني للتدقيق في زهرة الفول!

حينما سألتها روز هل يزرع الناس «من حيث أتيتِ» الورد، فكرت أن تحكي لها عن زراعتها للفول والبطاطا والبصل، في أصص صغيرة، اعتادت أن تختار لها أماكن منزوية في حديقة أمها، كي لا تشوه منظر زهورها المعتنى بها.

لم تكن ترى في نباتاتها المنزلية تشويها وإلّا لما زرعتها، لكنها من خبرات سابقة، كانت تعرف أن أمها تتعامل مع مزروعاتها هي كحشائش ضارة، تكره أن تراها بين شجيرات الورد والقرنفل والجاردينيا، وتتغاضى عنها فقط، حين تُحاصَر في أُصص صغيرة مهمشة، بجوار السور بحيث لا يراها الزوار.

ربما لو كانت فريدة تحب نبتات الفول والبطاطا والبصل، لرأت فيها دولت النباتات الأكثر جمالًا ورُقيًا في العالم، لكن فريدة لم تذكر شيئًا قط عن هذه النباتات. كانت مشغولة بالقرنفل، تتحدث بلا ملل عن أنه الزهرة الأكثر غبنًا والأقل تقديرًا!

«Carnation is under-rated! What a shame!»

تقول بالإنجليزية وهي تهز رأسها بأسف، كأن هذا سبب شقاء البشرية، فتبدأ دولت وصلة مديح في القرنفل. تثني فيها على جماله ورائحته وفوائده الطبية العديدة، وتقاوم كاميليا رغبتها في الصراخ المتواصل.

ليمون ومشهد من ماضٍ سحيق

لنتخيل الآن مطبخًا مهجورًا، من نافذته تبين حديقة مزروعة بأعشاب عطرية وخضروات متنوعة، وعلى رخامته ثلاث ليمونات متروكات للجفاف.

الأمر ليس صعبًا، العالم يغص بملايين المطابخ، ومن الوارد أن تنطبق هذه المواصفات على أحدها، إن لم يكن على العديد منها.

من ماضٍ سحيق مغمور بالضباب، تزور كاميليا، بين وقت وآخر، هذه الليمونات المتروكات على رخامة منسية. لا تعرف ماذا تفعل بها! ولا سبب اقتحامها لخيالها في أوقات غير متوقَّعة، فقط تغمرها رائحتها قبل أن تهتز وتخفت رويدًا.

حدس غامض يهمس لها، بأن هذا المشهد المنفلت لليمون منذور للجفاف، شيء مؤثر ولا يصح تجاهله. شيء له علاقة بأبيها وحبه للّيمون: «الليمونادة» مشروبه المفضل، إذا استثنينا الكحوليات. لا طعام يدخل معدته إلّا غارقا في عصارة الحامض القوي. شايه نصفه شاي ونصفه الآخر ليمون.

طوال سنواتها الأولى، أُجبِرت كاميليا على أن يكون ذاك المذاق اللاذع، جزءًا أساسيًا من نكهات طفولتها. لم تكره شيئًا كما كرهته.

فكرتها عن الحرية، تمثَّلت في حياة خالية من الليمون؛ من نكهته ورائحته.

قبل رحيله بأيام، اشترى الأب كعادته ليمونًا طازجًا، لم يتبق منه حين رحل سوى ثلاث ليمونات، جففتها الأم بحرص، واحتفظت بها في درج تسريحتها. اعتادت كاميليا - في ما بعد - رؤية أمها تداعب الثمرات الثلاث، وتغلق قبضتها عليه بحنو، قبل أن تتشممها وهي ساهمة.

لم يعرف أحد قط سر كراهية كاميليا للّيمون، كما لم يعرف أحد - بخلاف أمها وآدم لاحقًا - بأمر الركلة المحكمة التي أطاحت بتوازنها منذ كانت في الخامسة.

«شويبس ليمون!». يتردد اسم المشروب في ذهن كاميليا كترنيمة موترة. من حسن حظها أنها نجحت في محو طَعْمِه من ذاكرتها. هل نجحت فعلًا؟!

اعتادت التظاهر بالاستمتاع بالمشروب المفروض عليها، ولو شئنا الدقة علينا الاعتراف بأنها استمعت به مرة أو اثنتين! لم يكن لهذا علاقة بمذاقه، بل بزهو أبيها بأن ابنته تشبهه.

مثلما عاشت طفولتها خائفة من نوبات غضبه، ومن ركلة محتملة تشبه الركلة الأولى المخيمة على حياتها لا تزال، كانت ترهبه أيضًا، في ساعات صفوه القليلة، إذ لا يمكنها الجزم متى سينتهي الصفو وتهب عواصف الغضب، غضب غير موجه نحوها دائمًا بالضرورة، لكنه كان يرعبها في كل الأحوال.

«خاله الطيب راضي عنه»! تقول دولت، فتفهم كاميليا أن أباها مزاجه رائق. في الأوقات المماثلة، يأخذها لتجلس بجواره، يسألها عن مدرستها ودرجاتها في الامتحانات ويقول لدولت: «شاطرة زي أبوها!». دون أن يوجه لها هي المديح.

يصطحبها معه لجلسته المعتادة في المقهى القريب، ويطلب لها «شويبس ليمون»، فلا تجرؤ على طلب «ميرندا برتقال» كما ترغب. بغريزة طفولتها، كانت تلاحظ أنه سعيد لأنها تشرب ما يشربه، فتحرص على طلبه بنفسها في المرات التالية، وتنصت باهتمام للنقاش الصاخب بينه وبين أصدقائه بينما يلعبون الطاولة أو الشطرنج. كان الفائز غالبًا، واعتاد تقبل فوزه كأمر مسلم به، لا يستدعي التباهي على رفاقه، الذين اعتادوا ابتلاع إحباطهم. ما كان يغيظها أنهم، كانوا يتعاملون مع تفوقه عليهم في اللعبتين، كشيء قدري لا قِبل لهم بتغييره.

كم كانت فرحتها عظيمة، حين اختفى «شويبس ليمون» من السوق، ولم يعد سوى ذكرى محفورة في عقلها، غير أنه بحلول هذا الوقت، كان أبوها نفسه قد اختفى من حياتها، وصار بإمكانها أخيرًا إعلان عدائها لكل ما له صلة بالليمون.

بعد سنوات طويلة، حين خرجت من المستشفى بفجوة تتسع في جوفها، عاد إليها طعم الحامض، لازمها كعقوبة لم ينجح أي مذاق آخر في تغييرها أو التخفيف منها.

لذا حين رأت - لاحقًا - شرائح الليمون، في دورق الماء الموضوع على الكومود، في الغرفة المخصصة لها ببيت آدم وزوجته في سياتل، أبصرت فيها وجه أبيها يبتسم بتشفٍ.

المكان الوحيد الخالي في ذاكرتها من سطوة أبيها وشذى الليمون كان بيت فريدة، أقرب صديقات دولت. هناك لا هموم بادية، لا شيء سوى الضحك والرقص والثرثرات، أو هذا ما اعتقدته كاميليا.

في حفل عيد ميلاد فريدة، حيث كل التفاصيل تنطق بالثراء وتدل عليه؛ وحيث البنات رشيقات بملابس أنيقة وشعر ناعم ووجوه سعيدة،

جلست كاميليا الطفلة بجوار أمها مسحورة بكم الشموع، الموزعة هنا وهناك، وأحجامها وروائحها العطرية.

شمعدانات من الفضة، الخزف، الكريستال، العاج وخشب الورد، احتضنت الشموع زكية الرائحة مضفية على الحفل لمسة سحرية، خاصةً مع حرص فريدة، على تخفيف إضاءة الكهرباء، لأدنى درجة ممكنة. بعد تقطيع التورتة والتهامها، تكونت مجموعات صغيرة، تتبادل الدردشة والضحك، فيما رقص الشباب والشابات في الوسط على موسيقى هادئة، وراحت صاحبة الحفل تستعرض سوارًا ماسيًا أهداه زوجها لها. أما كاميليا، فاستغلت فرصة انشغال الجميع عنها، وانزوت في ركن بعيد، تتأمل ذوبان شمعة برائحة الياسمين.

التحمت عيناها باللهب المهتز، فغرقت في أحلام يقظة، انتهت بانتباهها على صرخة قريبة، وعلى منير زوج فريدة وهو يضغط رأسها إلى صدره بقوة. فهمت من الهلع والأصوات المتصارعة حولها، أنها نعست، وهي منكفئة قريبًا من الشمعة، فشبكت النار في شعرها الهائش، ولولا أن منير انتبه إلى الأمر في بدايته، لاحترق شعرها، قبل أن تستفيق من غفوتها. رغم انطفاء النار في بدايتها، بمنعه الهواء عنها، لم يتركها منير، وظل يربت على ظهرها مطمئنًا، لم يضايقه أن سترته تلفت، ولم ينهرها بسبب غفلتها، كما كان أبوها سيفعل.

تحول قلق المدعوين العابر، إلى نظرات شفقة وسخرية مكتومة، نظرات لطالما لاحقت كاميليا في أي تجمع، ما أن يُشغِّل أحدهم عن عمد أغنية «دبدوبة التخينة»، فتتجه العيون نحوها. «دبدوبة»: اللقب الذي ألصقه بها الأب، فلم تتخلص منه حتى بعد أن كبرت ونقص وزنها نسبيًا.

بعد سنوات، وفي حفل مشابه بالبيت نفسه، اختبرت كاميليا قبلتها

الأولى. كانت قد صارت شابة ملول عرفت لتوها طريق اللعب بالكلمات ومعها؛ ولا تكترث حين يسخر منها الآخرون كلمّا أعلنت أنها ستصير كاتبة معروفة.

خرجت إلى الشرفة المظلمة، لتدخين سيجارة خلسة بعيدًا عن رقابة أمها. أغمضت عينيها منصتة لهدوء الحديقة محاولةً تجاهل الأصوات الآتية من الداخل. سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها، وحبست الدخان في صدرها لثوانٍ. غارقة في عالمها الخاص، لم تلاحظ أنها لم تعد وحيدة في الظلام، إلّا عندما أحست بأنفاس، تفوح منها رائحة الشامبانيا، تقترب من وجهها.

قبل أن تفكر في التحرك، أطبقت شفتان شهوانيتان على شفتيها، ووجدت جسدها مضغوطًا إلى الحائط ويديها في أسر قبضتين مسيطرتين، سقطت سيجارتها على الأرض، ليتم دهسها في الحال. حاولت كاميليا تخليص نفسها بلا طائل. الجسد الملتصق بها كان قويًا وغير مستعد للتراجع، خلال لحظات وقعت في أسر لذة صعقتها. فتحت شفتيها ليندفع لسانه مقتحمًا فمها، ولمّا اطمأن لتجاوبها ترك يديها، وسرح كفه فوق ثدييها عبر القماش الخفيف لفستانها، بينما انشغل الكف الآخر بمداعبة ظهرها.

كما اقترب منها بلا مقدمات، ابتعد عنها فجأة لاهثًا. حين تسللت للداخل، بعد دقائق، فتشت عيناها عنه، واثقةً من أنها ستتعرف عليه، بطريقة ما. كان منير يتحدَّث إلى آخرين بحماسة، بينما يلف ذراعه حول خصر زوجته ورأسها مستكين إلى كتفه، لثوانٍ عابرة تعلقت عيناه بعيني كاميليا، قبل أن يواصل حديثه، ضامًا زوجته إليه أكثر.

حين انفض الحفل، صمم على توصيل كاميليا وأمها إلى بيتهما، عندما عرف أن الأم لم تأت بسيارتها. هناك قبل الدعوة لتناول القهوة بلا

تردد. منذ التقت عيناهما، وهو يضم زوجته إليه، أدركت كاميليا هوية من قبَّلها في الشرفة المظلمة.

تزايدت وتيرة الحفلات، وتكرر انسحاب كاميليا لظلام الشرفة، في انتظار معجبها السري. توسعت القبلة إلى قبلات أكثر عمقًا، واكتشافات لاهثة للجسدين الملتصقين. في عتمة شبه تامة أصبح للملمس والرائحة والأنفاس المتعانقة حسية مضاعفة. عبر تلك اللحظات المسروقة، شعرت كاميليا بأنها تنتقم من قسوة أبيها، ومن سخرية الآخرين من بدانتها، ومن كل مرة شغلّت فيها فريدة أغنية «دبدوبة التخينة»، في إحدى حفلاتها، سواء عن عمد أم لا.

تعلمت كاميليا المحافظة على التواطؤ التلقائي بينهما، ولم تخرقه بنظرة عالِمة موجهة إليه، وتجاهلت - قدر استطاعتها - عينيه الباحثتين عنها، والملاحقتين لها. كانت كأنما تخبره بأن ما يحدث في الظلمة لن يتجاوزها، لكن كلما ازداد إنكارها له في العلن، زادت رغبته فيها، وفي تأكيد خضوعها له، في دقائقهما المختلسة.

وهي معه، تغمض عينيها، وتتخيل نفسها بطلة فيلم رومانسي، تتخيله شخصًا آخر، وتتمنى لو لم تكن تعرفه خارج ظلام الشرفة. حين كان يوجه لها كلامًا عاديًا أمام آخرين، كانت تتصلَّب وترد باقتضاب، كأنه خان عهدًا غير منطوق بينهما، بالتظاهر بأن أحدهما لا يكترث بالآخر.

ثم بدأ ينتظرها في سيارته على ناصية الشارع حيث تسكن، غير مبالٍ باحتمالية أن تراه أمها أو أحد معارف زوجته. لن تنسى غضبه حين رآها تنزل من سيارة صديق لها، لوَّحت لصديقها مودِّعة، ومشت في الطريق إلى البيت، لتُفاجَأ بمن يمسك رسغها سائلًا بانفعال عن علاقتها بمن أوصلها. ركبت معه خوفًا من لفت أنظار الجيران، فانطلق مسرعًا.

لم تره منفعلًا لهذه الدرجة من قبل، ولم تفهم سبب ثورته، حتى تلك

اللحظة لم تكن تتعامل مع مداعباتهما بجدية، ولم تظن أنه يفعل. هو لديه زوجته وربما أخريات، فلماذا يتوقع أن يكون الوحيد في حياتها؟ جال هذا السؤال بخاطرها، فتزايدت استهانتها برد فعله العنيف، بدا لها مستلًا من فيلم مصري قديم.

اصطحبها إلى شقة في هليوبوليس لم تكن تعرف أنها ملكه؛ فهي لم تكن ملمة إلّا بأقل القليل عنه، فقط ما تردده أمها أمامها من وقتٍ لآخر، وما لاحظته هي طوال سنوات ترددها على الحفلات والمناسبات المختلفة في بيته.

أجالت النظر في الشقة الفخمة شبه الخالية من الأثاث وتساءلت، في سرها، عن عدد من أحضرهن معه إلى هنا. كمن يقرأ أفكارها قال:

«اشتريتها من أسبوعين».

أجلسها إلى كنبة تتوسط الصالة وغاب في الداخل لدقائق. عاد بعد أن خلع سترته وهو يحمل كأسين وزجاجة نبيذ. فتح الزجاجة وترك نبيذها يتنفس قليلًا، ثم صب السائل القاني في الكأسين. أعطاها واحدة وجلس على الأرض، بجوار قدميها، يهز الآخر ويقرب حافته من أنفه ليشم النبيذ قبل أن يتذوقه ببطء.

لاحظت أنه لم يتخلص من غضبه رغم محاولاته السيطرة على أعصابه.

«مين الشخص ده؟ وإيه علاقتك به؟»

«مش شغلك».

لم يرد. انتقل إلى جوارها وضمها إليه. التهم شفتيها كأنما يعاقبها. عض شفتها السفلى ولعق بلسانه شحمة أذنها، ثم بدأ يقبلها برقة. فوجئت به يبتعد عنها فأمسكت وجهه بين يديها وقبَّلته هي.

عاد إليها بشغف أكبر، حملها إلى السرير بالداخل والتحق بها، كانت كالمخطوفة في حلم.

احتضنها كما لو كان يرغب في أن تكون جزءًا من جسده، أن لا يكون لها وجود خارجه وبعيدًا عنه. أخذ يستنشقها بعمق، ويتشمم كل مليمتر من جسدها ويتذوقه بانغماس. بدأ بشفتيها ووجهها ثم عنقها وكتفيها وثدييها حيث توقف طويلًا تائهًا مرتعشًا. كانت حواسه الخمس متمركزة حول جسدها الغائب في اللذة. أتاها همسه في أذنها، بصوت مثقل بالشهوة، بعيد تمامًا عن صوته المألوف الواثق والمسيطر. شعرت كاميليا بقوة قصوى كونها قادرة على التأثير فيه على هذا النحو، وبضعف لا محدود تحولت معه إلى كتلة أعصاب عارية، لا تملك أدنى سيطرة على نفسها أو مشاعرها، وعلى وشك الانفجار في أي لحظة.

صرختها الأولى كُتِمت بقبلة جائعة، ثم خفت الألم، وبقيت اللذة المخدِّرة والمتصاعدة على نحو لم تختبره من قبل. أظافرها تركت خربشاتها على ظهره وصدره، وأسنانه خلفت آثارها على مواضع متفرقة من جسدها، كدمات خفيفة ستتفحصها كاميليا على مدى أيام قليلة تالية، فتشتعل رغبتها وهي تسترجع تفاصيل غرامهما.

لم تنتبه للوقت وهما معًا، كانا خارج الزمن، فوق سحابة تحلق بهما للأعلى. أحست كاميليا بنفسها خفيفة محلِّقة بين ذراعيه حين ضمها - لاحقًا - إليه، وراح يثرثر بلا نهاية، لم تره من قبل مقبلًا على البوح لهذه الدرجة، لطالما بدا لها كمن لا يطيق الكلام الجاد خاصةً الشخصي منه. كان إما يوزع تعليقات ساخرة لا يعرف منها من أمامه رأيه الحقيقي في أي شيء، أو يكتفي بمتابعة الآخرين وفي عينيه نظرة هازئة لم تكن كاميليا ترتاح إليها.

حكى لها عن نشأته في سرايا تملكها أمه: أرملة ثرية تزوجت أكثر من

مرة عقب وفاة أبيه، ما منحه مبررًا للاستقلال بحياته وميراثه مبكرًا. تكلم أيضًا عن شركته وولعه بعمله، وعن أصدقائه المنتمين - في معظمهم - إلى طبقته نفسها. من كلامه استشفت كاميليا أنه يعيش في «جيتو» خاص به، تختلف قوانينه عمّا يحيط بها.

توقعت أن يشكو من زوجته أو يسوق حججًا نمطية يبرر بها خيانته لها، غير أنه تحاشى الكلام عنها باستثناء عبارة واحدة وصفها بها واقشعر لها جسد كاميليا: «فريدة غابة تم اكتشافها»!

أدركت أنها كي تظل مستحوذة على اهتمامه، عليها أن تكون عصية على الاكتشاف، أن تظل لغزًا يصعب تفسيره، وإن لم تفهم تمامًا كيف يمكنها تحقيق هذا الهدفِ، كما لم تكن متأكدة من رغبتها في تحقيقه أصلًا.

في البداية لم تدر، هل أحبت منير أم لا! كل ما هي متأكدة منه أنها أحبت لمسة الخطورة والسرية في علاقتهما. العيش على الحافة، دون حساب الخطوة القادمة أو توقعها، استهواها. حيرتها قدرته على إخفاء شغفه بها أمام الآخرين، لو أنها لم تلمس هذا الولع المقارب للهوس وهما بمفردهما، لظنت أنها لا تعني له أكثر من نزوة عابرة.

لم تعد مقابلاتهما مقتصرة على دقائق مختلسة في الظلام، صارا يلتقيان بانتظام. ينتظرها بسيارته في مكان بعيد عن الحي الذي يقطنانه، يقود لأبعد مسافة ممكنة، قبل اختيار مكان يجلسان فيه بالساعات، يتحدثان في كل شيء وأي شيء.

أصبح الأمر مختلفًا، لم يعد متلهفًا على تقبيلها أو احتضانها كما في السابق، شكّت حتى أنه يتجنب أي اتصال جسدي بها. بدا لها لغزًا مستغلقًا على فهمها. مثّل لها في البداية نزوة مثيرة، مغامرة تتمرد بها على سيطرة أمها وسخرية الآخرين، وعدم نضج الشباب المقاربين لها في السن.

أن تكون مرغوبة ومشتهاة من رجل مثله أمر لم تحلم به، أمر جعلها تنظر لنفسها بعينين مختلفتين. اعتادت الوقوف أمام المرآة مطولًا لتأمل وجهها وجسدها في محاولة لتخيل كيف يراها منير وما الذي أعجبه فيها!

لاحظت ألقًا جديدًا في عينيها، ونضارة أضفت على بشرتها مزيدًا من الشباب. في المرآة واجهتها هيئة امرأة عاشقة. في ما بعد أدركت أن انعكاسها في المرآة أسرّ لها بمكنون نفسها قبل أن تنتبه إليه بكثير.

توقفه عن اصطحابها إلى شقة هليوبوليس، أخافها من أن يكون قد ندم على تورطه معها، لكنه لفت نظرها إليه أكثر. هي المحبة للإلغاز والتعقيد، لم يستهوها أبدًا الوضوح ولا المباشرة. رأت في منير أحجية تتحداها وشيفرة معقدة تثير خيالها. قالت في سرها إن كانت هذه لعبة، فاللعبة يمكن أن يلعبها اثنان، ولو كان هناك فائز واحد فيجب أن يكون هي.

لكن منير لم يكن في مزاج للعب، ما لم تتوقعه هو أنه وقع في حبها - كما أخبرها فيما بعد - ولم يكن واثقًا مما تريده هي من علاقتها به، أقلقه أن تراه مجرد ممر لخبرات جديدة أو مغامرة تتفاخر بها، كما لم يعرف كيف سيتصرف مع زوجته وولديه.

هي أيضًا فكرت في فريدة في تلك الفترة، وتزايد تفكيرها فيها كلما تعمقت عواطفها نحوه. صديقة أمها الجميلة والمتعالية لم تعد تثير ضيقها أو نقمتها، لم تغر منها كما يُفترض بها أن تفعل؛ بل بدأت تنظر نحوها بعطف لم تفهمه، رأت فيها بعضًا من منير، من ماضيه وحاضره.

تحاشت التردد على بيته مع أمها؛ لم تجد في نفسها القدرة على رؤيته مع أسرته الصغيرة، يتعامل معها أمامهم كضيفة طارئة على عالمهم الحميم. وهو لم يسألها عن سبب انقطاعها عن زيارتهم.

فاجأها برغبته في الطلاق. أخبرها بضرورة تجنب الخروج معًا حتى تهدأ عاصفة طلاقه. سينقل ملكية البيت لزوجته، وينتقل مؤقتًا إلى شقة هليوبوليس.

«مفيش داعي اسمك يرتبط بالمشاكل دي!».

قال ولم تعلق.

حين أخبرت أمها بعد أكثر من عام برغبة منير في الزواج منها، جُنَّت الأم. بدا غضبها مبالغًا فيه بالنسبة لكاميليا. حذرتها من فارق العمر بينهما، من أنه سيعود لطليقته وولديه ما إن يمل منها. فكرت كاميليا لحظتذاك أن أمها لو خُيِّرت بينها وبين فريدة ستختار الأخيرة، وأن اعتراضها الشديد على زواجها هي من منير سببه الخوف من فقدان صديقتها الحميمة.

قاطعتها أمها بالفعل. لم تحضر الزفاف، وفضلت قضاء اليوم بكامله مع طليقة منير وابنيه، معلنة تبرؤها مما أقدمت عليه وحيدتها.

لطالما خمنت كاميليا أن علاقة المرأتين، أقرب لعلاقة أم بابنتها، منها لعلاقة صديقة بصديقتها. كأن دولت حلمت بابنة جميلة واجتماعية مثل فريدة، وحظيت بكاميليا «بطيئة الفهم والحركة»، كما كان يصفها أبوها في أوقات غضبه.

بعد وفاة دولت، خطر لكاميليا، أن ما أحبته أمها بخصوص فريدة وحياتها أكثر من غيره، قد يكون زواجها الناجح من منير، وبيتهما المظلل - ظاهريًا على الأقل - بالحب، والصاخب دائمًا بحفلات وولائم تجمع الأصدقاء.

زواج حلمت دولت بمثله لنفسها، وآلمها أن تكون ابنتها سببًا من أسباب انتهائه.

حيث بدأ كل شيء

من مقعد خشبي، في باحة متحف على ضفة الفلتافا، بدأ كل شيء.

كي نفهم حقيقة ما نحن بصدده، علينا تذكر أن المقعد الخشبي الطويل كان مطليًا بالأخضر الداكن، إلى يمينه المتحف، وإلى يساره مقهى كولونادا ومحل بيع تذكارات كافكا وفي مواجهته مقهى «تسيهلنا».

ربما لو كان المقعد مطليًا بالبني أو الأزرق أو الأحمر لاختلف الأمر، لكن ثمة أشياء لا مقدرة لنا على تغييرها، ولا حكمة في المحاولة.

الأخضر بدرجاته هو اللون المفضل لكاميليا: لون الحياة الجديدة وجسد أوزوريس وعينيّ حورس في الميثولوجيا الفرعونية. والجشمت - حجر كاميليا الأثير - لا مثيل لاخضراره. لو قُدِّر لها أن تبعد عينيها عن المسافة البائسة بين قدميها المتباعدتين قليلًا، لأدركت أن اللون الداكن للمقعد الخشبي، علامة وغمزة عين من القدر.

حين حكت لآدم في لقائهما الأول ذاك عن حلم متكرر ترى فيه أنها تكتب قصة - وتشاهدها وتشترك في أحداثها - في الوقت نفسه، اهتم بما ذكرته عن كاتبة روسية وعازف بيانو يحدق في أصابعه، ولم يلتفت إلى كلامها عن عجوز يذرع جسر تشارلز، جيئةً وذهابًا، بلا انقطاع. هي نفسها حين بدأت تجتر تفاصيل الحلم، وتبني عليه، وتضيف إليه في تخيلاتها،

تناست العجوز لفترة. انشغلت بالتفكير في مَن أطلقت عليهما في سرها اسميّ «أولجا» و«ساندور»، وراح عن بالها ثالثهما. لم يبح لها الحلم بعلاقة هذا المشَّاء بهما، ولا بعلاقة أحدهما بالآخر، لكن في حالتهما راحت كاميليا تغزل على مهل خيوطًا تصل بينهما، أما هو فاستعصى عليها، وتحدى مخيلتها مكتفيًا بسيره الطقوسي غير الهادف لشيء.

ثم بزغ شعاع ضوء في عقل كاميليا، من مشهد قديم ذات صباح بارد بردًا مخدرًا، حيث بخار الماء يتصاعد من الأفواه - ما أن تُفتَح - ويمتزج بالضباب الخفيف.

في المشهد غابة ممتدة، وتغريد طيور غير مرئية، وفي الجوار كوخ خشبي خرج منه رجل وامرأة منغمسان في حوار حميم. ذراعه تحتضن خصرها بتملك، ورأسه يميل إلى رأسها هامسًا في أذنها بينما يدها على صدره كأنما تخشى أن يطير ويتركها وحدها.

من خلفهما انبعث صوت غاضب، ويد انتزعتها بعيدًا، وضربت رفيقها حتى غاب عن الوعي. كانت في غمامة من الهستيريا والنحيب وهي تُقاد إلى السيارة المركونة في مكان مخفي خلف الكوخ، لم تُتَح لها الفرصة للاطمئنان على رفيقها فاقد الوعي، ولا لتوديعه.

في الطريق إلى البيت كان الصمت راسخًا. انسحب الغضب رويدًا، مفسحًا المجال للاحتقار وعدم التصديق. ربما كان الكبرياء هو ما دفع الرجل المستغرق في أفكاره، بينما يقود سيارته بسرعة، لاستبعاد فكرة أن تكون زوجته الشابة على علاقة بآخر، رغم أن أطراف الخيط تجمعت عنده لتؤكد هذا.

الزوج الغاضب، ولنختر له اسم فلاديمير، وصل إلى الداتشا[1]

(1) بيت صيفي أو كوخ خشبي في غابة.

- القابع على أطراف غابة خيمكي - قبل ساعات. ركن سيارته على مقربة، وجلس فيها ينتظر. لم يرغب أو للدقة لم يقدر على الخروج منها والتوجه نحو الداتشا. فضَّل الانتظار بصبر جديد عليه متمنيًا أن تكون معلوماته خاطئة.

وصله صوت الباب وهو يُفتَح ثم يُغلَق، فخرج من السيارة متجهًا صوب زوجته ورفيقها. بدوَا له غائبين عن العالم من حولهما، لم يرها حية ومتألقة هكذا من قبل، رغم هدوئها الظاهري وهمس حميم لم تقدر أذناه على التقاط فحواه، لاحظ حماستها وتدفقها. لم يدر بنفسه إلّا وهو ينتزعها بعيدًا عن ساندور قبل أن يوجه له لكمات عنيفة متتابعة. لم يرد عليه غريمه بعنف مماثل، بل لم يحاول الرد أصلًا.

تركه فلاديمير ملقى غائبًا عن الوعي، وجر أولجا إلى السيارة بعد مشادة حامية معها.استجابت لقبضته في النهاية دون مقاومة، فقط ظلت عيناها معلقتين بالبقعة حيث يرقد رفيقها حتى أوغلت السيارة في الابتعاد.

يستعيده وهو مكوَّم كيفما اتفق وأنفه ينزف، فيتدخل خيال الفنان بداخله في المشهد. يحرِّفه ويتلاعب بمكوناته. يضيف له ندف ثلج تتساقط بغزارة من السماء وجليدًا يكسو الأرض، فيبدو الجسد الممدد كأنه يغفو على ملاءة بيضاء هائلة، والثلوج المتساقطة تغطيه بالتدريج حتى لا يبين منه سنتيمتر واحد. يختفي وتضع يد مجهولة وردة حمراء فوق كومة الثلج التي صار إياها.

هذا هو المنظر الأحب إلى قلب فلاديمير. ثلج، ثلج في كل مكان. الأرض مختبئة تحت طبقات وطبقات من الجليد، والأشجار متشحة بالبياض. لم يبصر في حياته شيئًا أجمل من منظر الثلوج المتساقطة من السماء، حبيبات بيضاء بالغة الرهافة والرقة، يظل يراقبها وهي تغطي كل

شيء، فيشعر بأسى لا يفهم سببه ولا مغزاه. يرسِّخ تساقط الثلوج وحدته حتى لو كان وسط المئات، ومع هذا أو ربما بسببه يعتبره الشيء الأحب إلى قلبه.

حيث نشأ كانت العزلة هي القانون، فالعواصف الثلجية المتكررة كانت تفرض على قريتهم عزلة إجبارية عن العالم. تنغلق الطرق الموصلة إليها، وتتراكم طبقات الجليد في الخارج، فيظل يراقبها من خلف زجاج النوافذ.

لو كان هناك شيء وحيد يكرهه في هذه العواصف، فهو أنها تحرمه من النشاط المفضَّل لديه: السير. التسكع بلا توقف أو نهاية. خطوة في إثر خطوة، ومسافة تتبعها أخرى. يستعيد حياته أو يتناساها مع المسير. يقطع الطرقات كحيوان يلتهم آخر زاده، فيخطر له أنه سيتبخر أو يستحيل غبارًا متطايرًا في الفضاء إن توقف. لا يتذكر متى سكنه هذا الهوس. ما يعرفه أنه اكتشف فيه خلاصه، وتعرَّف عبره على نفسه، أو فقدها وتمسّك بدلًا منها بفكرة هشة عنها، هشة ومتلاشية كذرة تائهة في عاصفة.

بعد سنوات طويلة من اكتشافه الأول للذة السير، لا يزال متمسكًا بها مخلصًا لها. يتسكَّع غيره رغبةً في التعرف على المدن والطرقات، المشي عندهم حجة للفرجة على ما يقابلهم، يأخذون وقتهم في تأمل ما حولهم: حركة الشارع، ما يرتديه المارة، تفاصيل المعمار.

أما هو، فسيره خالٍ من الغرض، يستغرقه السير فيغرق فيه. ينسى ماضيه، يتوه عن حاضره، يسهو عن هويته ويتوحد بخطوته. يصير ساقين لا تكفان عن الحركة. ساقان عملاقتان طموحهما وطء كل سنتيمتر متاح على هذا الكوكب. حلم مستحيل؟ لا بأس. في النهاية، لا يمكن لساقيه أن يسكنهما حلم مماثل، هما مثله، لا هدف لهما سوى السير المتواصل، سواءً في مساحات شاسعة أو في المكان نفسه بلا توقف. الذاهل عن ما حوله لن يهتم بتغير المناظر المرافقة لخطواته.

سبق له في الماضي، أن ظل يقطع الشارع ذاته مرات ومرات يوميًا لشهر كامل، غير عابئ بمتابعيه المندهشين والباحثين عن منطق ما خلف ما يقوم به أو مبرر له.

كيف يفهمهم أن المبررات بلا معنى؟ ما من طريقة لإقناعهم بأنه نفسه لا يمكنه القبض على مبرر واضح خلف معظم قراراته واختياراته المصيرية. لطالما كان فاشلًا في شرح ذاته وأفعاله أو الدفاع عنها.

كان يحب في أولجا أنه في حضرتها في غير حاجة إلى التبرير والايضاح. لا تستهويها متاهات التفاصيل الصغيرة وتعقيداتها. تقبل الآخرين كما هم. هكذا كان يصفها قبل أن يتساءل لاحقًا: هل هي كذلك بالفعل أم أن الآخرين خارج حساباتها، غير موجودين بالنسبة لها؟

أيًا ما كان الأمر، ناسبه ذلك، منحه مساحة شخصية واسعة. لم يكن مضطرًا مثلًا لأن يوضح لها أسباب رحلة القطار الطويلة بامتداد خط «ترانس سيبريان». في الحقيقة لم تكن هناك أسباب ليستعرضها، مجرد نزوة خطرت له فقرر تنفيذها على الفور.

تلك الرحلة، كانت معادله الوحيد للسير الطقوسي غير الهادف لشيء. خلالها، حاول نسيان كل ما يخصه، شعر بأنه شخص آخر مُنْبَتّ الصلة بحياته الماضية، عابر سبيل في قطار سريع، ينظر من النافذة فتواجهه ثلوج ممتدة، وشجر يكاد يتجمد، يغادر محطة ويصل إلى أخرى، فتتشابه عليه المحطات خاصة في الليل: المصابيح مهتزة الإضاءة والانتظار وقد تجسد ولم يعد معنىً مجردًا.

في عربة الطعام، المتأرجحة قليلًا، كانت تهتز إضاءة شمعة على الطاولة أمامه، بينما يدوِّن هو أفكارًا وشذرات، يحدس بأنه سيحتاج إليها حين يقرر كتابة تفاصيل رحلته لاحقًا. متأملًا المحيط الهادي وهو في جزيرة سخالين، بعدها بسنوات، ستخطر في باله الشمعة بإضاءتها

المتأرجحة، سوف يشعر بدفء خافت أمدته به، ويرى بعينيّ ذاكرته ظلالها المتراقصة، ولن يفهم أبدًا لماذا دائمًا للظلال حضور أكبر من أصولها في مخيلته، وللصدى الأفضلية على الصوت.

حتى ذكرياته، لا ينحفر منها بداخله إلّا أشدها خفوتًا وهشاشة. من طفولته تحضره فقط الروائح والانطباعات والأحاسيس، وتغيب الحوادث الكبرى. لا ينساها بالضرورة، فما زال يفخر بذاكرة متقدة، فقط لا تلح عليه، ولا يستعيدها مرارًا كعادته مع التفاصيل الهامشية.

يجتر بتلذذ لا يفتر لحظة جلوسه مقرفصًا في بستان تفاح في بدايات مراهقته. كان يسير كعادته في الطريق الواصل بين قريتهم والقرى المجاورة، حين بدأ المطر في الهطول، رأى بستان التفاح فدخله، كانت الأشجار مزهرة، أزهارها الرقيقة مرتعشة تحت المطر والبرد، ورائحة العشب كثيفة، للعشب رائحة مختلفة حين تنعشه الأمطار وتوقظه، وهو جلس مستمتعًا بلحظة صفو نادرة ومبهمة.

كلما عاودته تلك الذكرى البعيدة، يدرك أن طريقة توزيع ضوء النهار المغبش في غياب الشمس وحضرة الغيوم الداكنة، وأثره على البستان وما يحيط به هو ما يخلِّدها بداخله. تلح عليه رائحة العشب الممزوج بالمطر، لكن الضوء الكابي المنسكب ببخل، والأقرب للظلال منه للضوء، وأثره على أخضر الأشجار وأبيض الزهور والأفق البعيد، هو ما استفز مخيلة الفنان بداخله، حتى قبل أن ينتبه إلى أن بذرة الفن كامنة فيه.

في القطار العابر لسيبيريا، رسم إسكتشات لا تحصى للمحطات المتشابهة والمختلفة في آن، كان يبحث عن التفرد بين المتشابهات، ويحلم بالإمساك بتلك اللحظة السحرية حيث يمتزج الضوء بالظل كأنهما شيء واحد.

خلال تلك الرحلة، شعر أن لا جذور تشده إلى أرض ولا خيوط

تربطه بغيره: عابر سبيل في قطار بلا وجهة نهائية. بعد هذه الرحلة بأقل من سنتين كان المشهد أمام الداتشا ذات ضحى بارد. مشهد صار يؤرخ به لما قبله وما بعده، ولو كان الخيار له، لفضَّل اختيار رحلة «ترانس سيبريان» باعتبارها الحدث المركزي في حياته، لكن رغمًا عنه تفرض المشاجرة قرب الغابة نفسها ويحوِّم طيف الرجل - الملقى على الأرض وقد غاب عن الوعي - في مخيلته.

حكت له أولجا لاحقًا تفاصيل علاقتها بساندور. متلكئة تخرج الكلمات من فمها بالكاد وبصوت مبحوح متردد. كان يستحثها على مواصلة الحكي بلا توقف، يسألها عن أدق التفاصيل، يطلب منها مده بمشاهد مرسومة بدقة، يتلذذ بتحفظها وضيقها ويندهش من طاعتها، وتنازلها عن عنادها وروح التحدي الملازمين لها. هل كانت مثله تجد متعة مذنبة وغامضة في إخراج سرها إلى العلن؟ هل كان الحكي وسيلتها لتوديع هذه العلاقة وتحرير نفسها منها؟ أم تميمتها لتخليدها بداخلها وتعميدها بماء القبول والاعتراف؟

لاحظ أنها حرصت على عدم التورط في التبرير. قالت إنها التقت بساندور للمرة الأولى في حديقة «جوركي». مصادفة ظنتها عابرة لن تتكرر، تبادلا فيها كلمات قليلة، داعب الصغير وأعطاه حلوى. بروسية ذات لكنة ثقيلة، ذكر شيئًا عن غربته في موسكو وعن الشتاء ضيفها الدائم، قارن بين نهرها وبين الدانوب الذي يشق مدينته الأم، بعبارات لا تتذكرها أولجا؛ لأنها كانت مشغولة بمقاومة انجذابها إلى بحة صوته الحسي المشروخ قليلًا وبالبحث عن لحظة مناسبة بين جمله المتلاحقة لتستأذن للانصراف مع طفلها. لم تنتبه إلى أنه تبعها إلى البيت، وحرص على تكرار «مصادفة» لقائهما الأول.

أخبرها فلاديمير بعد شهرين بخبر مغادرة ساندور موسكو، كان مستمتعًا بمراقبة تعبيراتها واختلاجات وجهها بينما تنصت لكلماته،

ناورت وتظاهرت بعدم الاهتمام، لكنه كان متأكدًا من أن رحيل الأخير المفاجئ آلمها، وأشعرها أنها مغامرة عابرة في حياته. كانت قد اختارت بملء إرادتها الاستمرار مع زوجها وابنها، ومنح زواجها فرصة، وأدهشها أن «فولوديا»[1] ارتاح لقرارها، وتغاضى عن علاقتها الغرامية بغيره، غير أنه حين بدأ يحثها على سرد دقائق هذه العلاقة مرارًا وتكرارًا، خافت أن تكون تلك هي طريقته في الانتقام منها. ومع هذا لم تعترض على البوح بخفايا ظنت، قبلًا، أنها ستظل سرًا للأبد. وهي تسرد الحكاية بصوتها المتردد الخافت كانت ترى ما جرى في ضوء جديد، تفهمه وتضعه في سياقه الأوسع. خُيِّل لها أن الإعادة والتكرار سيدلانها على سبب اختفاءساندور التام وعدم اتصاله بها ولو للاطمئنان عليها.

لم يخبرها فلاديمير قط أن ساندور أرسل لها، قبل أن يغادر موسكو، رسائل عديدة كان مصيرها التحول إلى تراب، وأنه حاول زيارتها، فهدده فلاديمير، وأكد له أن زوجته قررت قطع صلتها به نهائيًا. كانت أصابع ساندور لا تزال مغطاة بالضمادات وجروح وجهه حية وظاهرة حين التقى الرجلان.

لا يعرف فلاديمير لماذا لم يهجرها حين اكتشف علاقتها السرية! لم يكن مشغولًا بالحفاظ على أسرة متماسكة لتربية ابنهما، بالكاد كان يتذكر وجود إيفان وقتها. ربما راقته الدراما التي أضفت إثارة ما على علاقتهما الخالية من الأحداث الكبرى، أو تعامل مع المسألة كمعركة عليه الانتصار فيها تحت أي ظرف.

أغرقت أولجا نفسها في كتاباتها وحيوات أبطالها وبطلاتها، أما هو فواصل سيره الطقوسي باعتباره العزاء لكل ما يقابله من خيبات وعثرات، وشغل نفسه بمشاريع فنية متتالية: معرض فوتوغرافيا، إسكتشات رسمها

---

(1) صيغة التدليل الروسية لاسم فلاديمير.

لمناظر طبيعية وخيالات تراوغه، ومسودات كتاب بدأه بفصل سرد فيه ذكرى القبض على الضوء متحدًا بالظل، ذات يوم ماطر بعيد، في بستان تفاح على الطريق الواصل بين قريتين.

في مفتتح كتابه هذا كتب فلاديمير:

«النار أم الوهم والدخان. أم ملتاعة تتغذّى على ذاتها وتطلق ابنها حرًا في الفضاء، هشًا على وشك التلاشي. وأنا أحلم بحياة من وهم ودخان ينعكسان على مرآة مغبشة، فتتلاشى الحدود وتختلط. وفي قلب هذا سأظل دومًا صقرًا يحلم بأن يصير غزالًا، طائرًا لا يعرف تحديدًا ما الغزال، لكن فكرة الغزال تتراءى له كشيء تعجز معارفه عن الإحاطة به أو القبض عليه، ومع هذا تتوق نفسه إليه، وتتشظّى روحة رغبةً في أن تصير إياه».

رجل وامرأة وثالثهما بئر

لننسَ، مؤقتًا، كافكا ومتحفه والفلتافا وبراغ، لنترك أولجا شاردة أمام حاسوبها، وساندور محدقًا في أصابعه، وروز محبوسة في زنزانة من اللون الأرجواني، وفلاديمير سائرًا بلا هدف، ولنستحضر رجلًا وامرأة جالسين على مقعد خشبي وأمامهما بئر: المرأة ساهمة، وشعرها يتطاير مستسلمًا لمداعبات النسيم، والرجل يرنو باتجاه البئر، غير أنه يبدو كمن لا يرى، كأن عينيه مقلوبتان وتنظران نحو الداخل.

الرجل والمرأة خلفهما بستان زيتون، وفي الخلفية يلوح تل فوقه بيت قديم يبدو للناظر من بعيد كقلعة معلقة بين السحب. داخل البيت رجل يعيد قراءة حياته كلها في مرحلة أفوله، ويجتهد - بلا طائل - للتمييز بين الحقائق والضلالات، لكن تلك قصة أخرى.

بعد البئر، تمتد صحراء بلا نهاية، لا أهمية للصحراء هنا سوى أن لون الرمال مناسب للحالة المخيِّمة على الجالسين على المقعد.

لكن لماذا بئر تحديدًا؟ وما دلالتها؟

لطالما أسرت الآبار خيال آدم. لم يرَ في حياته بئرًا، ولا يعتقد أنه سيفعل يومًا، ومع هذا لو قُدِّر له اختيار الشيء الأكثر إغواءً وإثارة لأفكاره

لاختارها بلا تردد. بئر جافة أو ملأى بالماء، لا يهم. لكلٍ جاذبيتها في نظره. الآبار والمناجم رحم الأرض ومستودع أسرارها وخصوبتها.

يفكر في كاميليا، فيخطر له أن ثمة بئرًا كانت حاضرة في لقائه الأول بها، بئرًا عميقة الغور ألقى كل منهما فيها بحمولته من الأسرار والهواجس، بل ربما مَثَّل كل منهما بئرًا للآخر. كانت بئره وكان بئرها.

غير أن التخفف من عبء الماضي، لم يكن تخففًا بأي حال، على العكس من ذلك، انبعثت أشباح ماضيه حية من مخابئها ما أن باح بها. بعد أن كان قد أقنع نفسه طويلًا بزوالها وتجاوزه لها، هبَّت حية عاصفة وجديدة.

لا يعني هذا أنه نادم! نادرًا ما يساوره هذا الشعور، كما أن إحياء المخاوف وقود للكتابة، وقود حارق لأعصابه واتزانه النفسي، لكنه فعَّال ومؤكد لإشعال خياله.

أجج هذا الوقود مخيلته، ورسم فيها مدينة تُسوَّى بالأرض، معالمها تتلاشى، ومعظم سكانها قضوا نحبهم إما تحت الأنقاض أو مختنقين أو محترقين. واحد من أهلها وجد نفسه مسكونًا بناسك يتجول في غابة بلوط رطبة ومظلمة تقع على أطراف مدينة لا تشبه تلك المدمرة.

رأى آدم في تجدد مخاوفه وانبعاث أشباح ماضيه ثمنًا بخسًا، هو على أتم استعداد لدفعه مهرًا لقصة أخذت تنبني بداخله على مهل لكن بثبات.

فكر في البداية، أن يجعل من مدينة خيالات بطله، نسخة داكنة من براغ، حيث نبتت بذرة القصة في عقله، أن يحولها إلى «براغ» أخرى لا يجمعها بالمدينة الواقعية سوى الاسم، لكنه سرعان ما غيَّر رأيه، وارتاح لفكرة ألّا يكون لمدينة قصته أصل واقعي واضح.

قال إنه، ما أن ينتهي من كتابتها، حتى يهديها إلى كاميليا، بئره الخاصة

التي ألقى فيها بأسراره ومخاوفه القديمة، فأهدته - دون قصد منها - طرف الخيط إلى مدينته الحلم.

أمسك بطرف الخيط منها وألقى بنفسه في غياهب البئر، حيث الظلمة والبرودة والغرق، لكن أيضًا حيث الوعد المراوغ بالوصول إلى مكان لا يشبهه أي مكان آخر. وعد تأكد آدم المرة تلو الأخرى من سرابيته، إلّا أن حماقة محببة تدفعه لملاحقته وقطع مسافات هائلة في الطريق المتوَّهم إليه.

منذ طفولته اعتاد أن يفعل كل شيء وحده، لطالما أخجله طلب العون من الآخرين. كان يستحم وحده كعادته، ثم فوجئت به أمه يخرج من الحمام عاريًا مفزوعًا. قال إنه وجد شيئًا غريبًا في حوض الاستحمام، فدخلت معه متحفزة، نظرت بتدقيق فلم تبصر شيئًا غير مألوف. بعد دقائق من الجدال مع صغيرها لاحظت أنه يشير إلى ظله المنعكس على حوض الاستحمام الأبيض.

ضحكت الأم باستغراق فغضب الابن غضبًا لم تخففه متابعة قبضة الأم المتحركة والمنعكس ظلها على بياض الحوض على هيئة كائن غامض هدفه إضحاك الصغير لا إخافته.

أوضحت له:

«هذا ظلك، وهذا ظل قبضتي، حرّك يدك وستُفاجأ بظلها يقلدك ويلعب معك».

«لا أريده، تخلصي منه».

«لا يمكنني حتى لو أردت. ظلك يصاحبك لأنه يحبك».

«لا أحبه ولا أريده أن يتبعني».

صرخ آدم بالجملة الأخيرة، فاحتارت الأم كيف تقنع طفلها العنيد

بأن ثمة أشياء خارج مجال قدرتها، طمأنت نفسها بأنه ما إن يكبر حتى يتأقلم مع حقائق الحياة، لم تنتبه إلى أن آدم ظل لسنوات مسكونًا بظله، بل ربما لم يفلت من أسره قط.

كان يسير وعيناه مثبتتان على ظل يسبقه تارة ويلحق به أخرى، يكون أصغر منه مرة وأكبر مرات. بدا له كرفيق غير مرحب به، كتكوين رمادي مبهم يراقبه ويطل عليه من عالم غامض.

قرأ كل ما وقع تحت يديه عن الظل: التفسير العلمي له وكيف رأته الميثولوجيات القديمة، ورمزيته في الثقافات المختلفة.

من تفصيلة الطفل الخائف من ظله في حوض الاستحمام قبل عقود، نبعت في مخيلة آدم، فكرة أن يكتب يومًا عن مدينة للخوف، وتخيلها أرضًا للظلال ومأوى لها، بل كظل المدينة وفكرتها عن نفسها، أي مدينة وكل مدينة.

لم يعرف السبيل المباشر لتحقيق هذا الهدف فنيًا، فقرر ترك الفكرة تختمر في رأسه على أمل أن يجلوها الوقت وينضجها. في عقله بزغ عنوان القصة الأولى: «ناسك في غابة».

دوَّنه في دفتر يومياته، وسارع بإرسال رسالة إلكترونية إلى كاميليا يخبرها فيها أنه مشغول بكتابة قصة سيهديها إياها ويرسلها لها كي تقرأها قبل نشرها. كانت هذه طريقته لتوريط نفسه في كتابة القصة؛ معرفته أن شخصًا آخر يعرف بها وينتظرها، ستحفِّزه على إنجازها، وستشحذ مخيلته.

عاندته «ناسك في غابة»، فانشغل، مؤقتًا، بكتابة القصة المستلهمة من حياة جدته ومأساة طفولتها. جالسًا إلى مكتبه، المطلة نافذته المفتوحة على حديقة الورد، خط آدم على الورق أمامه الخطوط العامة التي سينطلق منها؛ عرف أن عليه استنطاق الصمت وتأويله، ومنحه صوتًا ومخيلة.

كان قد قرأ يومًا عن «البابو» وهي قبائل لغتها فقيرة ومعجمها اللغوي محدود ويتناقص باستمرار، لأنهم يحذفون كلمات من لغتهم كلما مات أحدهم! لم تشبع المعلومة العابرة فضوله: هل تُحذَف الكلمات اعتباطًا؟ أم يميتون قصدًا كلمات معينة مرتبطة في ذاكرتهم بالفقيد؟

أسرته الفكرة لفترة: لغة تنكمش حتى تغرق في الصمت والسكون، ويستعيض متحدثوها عنها بالإشارات. لغة ستتلاشى، لا ريب، بما أنها محدودة، وبما أن الموت حدث يومي. ذكَّره هذا بجدته بشكل ما، بدت له كأنما كانت تنتمي إلى هذه القبائل وتحذو حذو أفرادها.

مؤكد أنها لم تعرف شيئًا عنهم، ومع هذا سارت على نهجهم، دون وعي منها. ابتلعت كلمات كثيرة، وتركتها تغرق في جوفها. لم تنطق بها لا بلغتها الأم، ولا بلغة زوجها الأصلية أو لغة مهجرهما. لم تصمت فقط عن حكي ما مرت به من أهوال، لكنها أبادت من قاموسها اليومي كل ما له علاقة بذكرياتها المُعذِّبة. لم تنطق يومًا بمفردات مثل: النار، الحريق، القتل، الاغتصاب، البكاء، الارتعاش، السكين، والسيف. كأن إنكار مفردات الشر والألم سيحفظ البشرية من المعاناة، بل سيلغي كل أوجه المعاناة من الوجود.

خافت دومًا من دواليب الملابس والخزانات المغلقة على ما فيها، وكانت تنفعل على حفيدها كلما حبس نفسه في إحداها أثناء لعبه، ومن هنا تحديدًا خطرت له تفصيلة اختبائها في خزانة الملابس كي تنجو بحياتها، تفصيلة راكم عليها مئات غيرها ليخترع تاريخًا متخيلًا لجدته.

من صمتها، وما حذفته، وتعاملت معه كأنه والعدم سواء، انطلق آدم لترميم حياة منقوصة، حياة هشة كأنها رسم «كروكي» بقلم رصاص.

أحب حياتها المفترَضة أكثر من تلك الواقعية الغارقة في الصمت والأسرار، وأحب جدة خيالاته وأفكاره، ربما أكثر مما أحب عجوزًا

متشحة بالسواد ما تحاشت شيئًا قدر تحاشيها الحديث عن طفولتها وصباها.

بشكل عام، شاب الحذر علاقتها باللغة والكلام. كانت الكلمات تخرج من فمها بطيئة مترددة، وكثيرًا ما كانت جملها لا تكتمل وتظل مبتورة مطالبةً من أمامها بفهم ما يحلو له. حتى آخر أيام حياتها، ظلت تنطق الإنجليزية بلكنة غريبة خشنة مزركشة بمفردات تركية وآشورية ويونانية.

كانت دموعها قريبة، تبكي في أوقات الحزن ولحظات الفرح، تبكي وهي تشاهد فيلمًا أو تسمع أغنية. الأغنيات الفرنسية القديمة تحديدًا كانت تسحرها وتجلب دموعها من الأعماق مع أنها لم تكن تفهم اللغة. كانت عيناها تغرورقان إذا رأت هدهدًا أو لمحت طائر عصفور الجنة، لم يكن أحد يتوقف أمام هذه التفاصيل البسيطة أو يربط بينها، إلّا آدم. اعتاد أن يسألها عن سر دموعها، فتمسح وجنتيها وتحكي له حكاية غرائبية حافلة بالجن والمخلوقات الغريبة أو تغني له أغنية بلغة لا يعرفها وإن كانت إيقاعاتها تأسره.

في مرّة نادرة، حكت له، عن بلاد فيها جبال شاهقة قممها مكسوة بالثلوج، ووديان عميقة وجداول مياه وبحيرات يحيطها الأخضر من كل جانب، وحين سألها حفيدها إن كانت تحكي عن موطنها، لاذت بالصمت، ولم تفلح محاولاته، في جرها لمنطقة البوح من جديد.

يعرف أنها آشورية، وُلِدت وعاشت سنواتها الأولى في قرية على مقربة من آمِد[1]، ذكر جده مرة أن قرية الجدة اسمها «قرة باش»، لكن آدم ليس متأكدًا من مدى دقة المعلومة، خاصة أنه حين بحث عن معلومات

(1) ديار بكر.

أكثر عن القرية المسماة «قرة باش» اكتشف أنها خالية من الجبال. يعرف أيضًا أن جدته كانت الناجية الوحيدة من مذبحة قضت على كل أفراد عائلتها. قرأ كثيرًا عن تاريخ المنطقة التي وُلِدت فيها، والخيوط المتجمِّعة عنده لم تخبره أي مذبحة بالضبط سكنت خيال جدته، وغيَّرت حياتها كليًا، ودفعتها للاستماتة في دفن كل ما جرى في ماضيها بأعماق سحيقة، وغلَّفت سنواتها القليلة السابقة عليها بضباب كثيف داكن. في ما بعد، خمَّن أن المذبحة المقصودة هي مذبحة «سيفو» المُرتكَبة في 1915: «عام السيف» كما بات يُعرف لدى السريان والآشوريين.

ربما يكون من بين ما دفع آدم إلى جلسة البوح المعمَّق مع كاميليا في لقائهما الأول، هو اكتشافه - حين بدآ في الكلام - أنها تنتمي إلى بلد قريب ثقافيًا وجغرافيًا من موطن جدته، لم يفعل هذا بشكل واعٍ بطبيعة الحال، على الأقل هذا ما حاول إقناع نفسه به لاحقًا.

ما كان واضحًا له، وقتذاك، أن أول ما جذبه لها، كان استغراقها في النظر إلى المسافة بين قدميها وانفصالها التام عن كل ما حولها، إضافة إلى ملامح من المستحيل أن تشي بالانتماء إلى عِرقٍ بعينه.

يتذكَّر كاميليا في لحظتهما المشتركة تلك، فيزوره طيف ابتسامة.

ناسك في غابة

إلى كاميليا مجدي.. الظل مرآة يرى الضوء فيها وجهه ممعنًا في غيابه!

آدم كوستاكي

ربما كان في درسدن وقوات الحلفاء تمطرها بالقنابل شديدة الانفجار، أو في بغداد بينما تُدَّك بصواريخ كروز والتوماهوك الجاهلة بهوْل ما تفعل، أو في مدينة مخترَعة لحظة فنائها.

لا يهم اسم مدينته أو موقعها، فكل المدن المنكوبة، أثناء تعرضها لخطر الزوال، مدينة واحدة.

لم يكن واقفًا حين بدأ القصف، بل على أطرافه الأربعة، في وضع أقرب للسجود على أرض المكتبة. لا يعرف أكان يستبق المأساة، أم أنه كالحيوانات يمكنه التنبؤ بالخطر! لا يتذكر أنه سمع صفارات إنذار تحذر من غارة وشيكة، لكن أصوات الانفجارات المتتالية اخترقت أذنيه وترسخت في ذاكرته.

آلاف الأطنان من القنابل الحارقة أُلقيت على مدينته. مئات المباني والمنشآت صارت رمادًا. البيوت تحولت إلى قبور لساكنيها.

الانفجارات المزلزلة فرّغت الفضاء المحيط بها من الهواء، خاصة أن الحرائق اشتعلت في كل جانب، مكونةً عاصفة نارية، التهمت ما تبقى من أكسجين. بعض من لم تقتلهم القنابل، اختنقوا وهم يتسولون أنفاسهم عبثًا، أو احترقوا من الحرارة اللاهبة. هناك من رموا أنفسهم في النهر، ليُفاجَأوا بأن مياهه تكاد تغلي. الناجون القلائل لم يفعلوا شيئًا سوى الاستلقاء في أماكنهم، منتظرين نهايتهم، داعين ألّا تتأخر، قبل أن يغرقوا في ظلام دامس. استسلامهم هذا كان من بين أسباب نجاتهم التي تلخصت في الحظ والصدفة وما بينهما. أو هكذا على الأقل كان الأمر في حالته.

كان مدفونًا تحت طبقات من التراب، فمه ممتلئ به وحلقه متشقق كأنه لم يعرف رطوبة اللعاب يومًا، أما جسده فغير موجود تقريبًا. لا، بل كثيف الوجود كأنما يزن طنًا. فكر وهو يفيق ببطء وسط الركام أنه الآن ناسك. لم يعد يشبه أمين المكتبة الذي كانه في شيء. لا مزيد من الانكفاء على صفحات كتاب قديم، أو البحث في قوائم الكتب، أو التجوُّل في الممرات المتقاطعة بين أرفف لا نهائية.

لم يكن، في تلك اللحظة المشوشة، واعيًا بذاته، أو مدركًا لموقعه في العالم. كان فقط جسدًا بالغ الثقل وحلقًا جافًا كأنما مبطن بالجبس وعقلًا مخدَّرًا، لكنه كان واثقًا من أنه ناسك عارف بالطاو.

خطر له أنه اعتاد التوهان عن ذاته وفقدها، غير أنه دائمًا ما يعود إلى البقعة نفسها. للدقة هو لم يغادرها قط، بل لن يقدر على مغادرتها حتى لو أراد، إذ إنه محبوس فيها مثلما هي محبوسة بداخله، ممددة في تلافيف عقله السديمي.

شعر فجأة أن جسده صار خفيفًا وقويًا. غادره الشعور بالعطش، صار بإمكانه بلع ريقه بلا ألم. خُيِّل إليه أنه جرؤ على القيام، ونفض التراب

والركام عنه. بدوَا ركامًا وهميًا وترابًا لا وجود له إلّا في خياله. حرّك قدميه متوجسًا، فاكتشف قدرته على السير. تفحص نفسه بحثًا عن أثر الجروح المفترضة، فلم يعثر عليها. كان قد توقع وهو قابع تحت بقايا جدار مبنى المكتبة أنه فقد ساقيه، والآن بينما يرى نفسه يحركهما، كأن شيئًا لم يحدث انتابه شعور مبهم بخيبة الأمل.

دار حول المكان. باستثناء الأنقاض التي نهض من بينها، لم يكن هناك ما يشير إلى الدمار. ران صمت مطبق، وبدا الهواء سميكًا كأنما يمكن الإمساك به والقبض عليه. واصل سيره، فلاحت له غابة من أشجار البلوط. دقق النظر في ما حوله، فاكتشف أنه أفاق منذ البداية بداخل الغابة، أو بالأحرى على أطرافها. أعطاها ظهره، وخرج مفتشًا عن مدينته. لا يمكن أن يعود هذا الركام لمبنى المكتبة المركزية حيث اعتاد أن يعمل على مدى السنوات العشر الأخيرة. لم يكن ثمة غابة بجوار مقر عمله، فقط حديقة بها ألعاب أطفال نادرًا ما يلعب عليها أحد.

خارج الغابة كان ضوء النهار كابيًا، مشيَ طويلًا دون أن يتعرف على المكان. غاب النهر، تلاشت الشوارع والميادين المألوفة، واختفت البنايات بلا أثر يدل على وجود سابق لها. انتبه إلى أنه يسير في مدينة مختلفة. لم يُوَاجَه بفراغ كما ظن لأول وهلة، إنما بمدينة أخرى لم يستوعب تفاصيلها لأنه كان مشغولًا بالبحث عن معالم مدينته الأم.

بعد فترة، لا يعرف مداها، توقف عن البحث. راح يجوس في الطرقات المظلمة، برداء داكن وقبعة تمنح وجهه بُعدًا كابوسيًا مبالغًا فيه كان قد وجدها ملقاة في أحد الأركان. يقطع الدروب كقطعة من ليل، ويخطو كالمأخوذ حتى تبتلعه العتمة وتنغلق عليه.

عندما يصل إلى الميدان الرئيسي، يرى حلقة نار مشتعلة دومًا، يخترقها غير عابئ بالألم، وبداخلها، في الدائرة الكبيرة المحاصرة

باللهب المتراقص، يبدأ رقصته المدوِّخة. يدور حول نفسه، ببطء أولًا، ثم يتسارع إيقاعه رويدًا، يرقب العالم عبر سياج النار المهتزة، وحين يتسارع دورانه، لا يكون للثبات مكان في عالمه. تضيع الحدود وتتلاشى الأشياء، وتواجه عيناه غمامة برتقالية مرتعشة تخالطها حُمرة مترددة وزرقة مائلة للاخضرار. يصير كالهواء، ولا يدري بنفسه إلّا وقد سقط مكوَّمًا على الأرض غير منتبهٍ لحرارة تلسع وجهه ويديه، ولا لهسيس النيران المطقطقة، لأن ذهنه يكون مسحورًا بترنيمة ترددها جوقة غير مرئية، بأصوات شجية متناغمة.

ما إن يحل الصمت حتى يفيق الغائب عن الوعي داخل حلقة النيران. يدلك رقبته، وينفض الغبار عن ملابسه، ويغادر دائرة، أصبح الرقص فيها، طقسًا لا غِنى له عنه.

أصبح لا يكف عن السير البطيء في الطرقات، مفكِّرًا في ما لا قدرة له على فهمه. يحاول استعادة الترنيمة المصاحبة لإغماءاته المتكررة، فلا يفلح. يتشاغل عن عجز ذاكرته بأن يُملي - على الفراغ - رسائل لا نهائية، كل جملة فيها لا علاقة لها بما يسبقها أو يليها: اللامعنى في اكتماله!

«أن تكتب الرسائل يعني أن تتعرى أمام الأشباح».[1] تتردد الجملة في ذهنه فلا يتذكر أين صادفته. يشعر بأنه شبح، بل فكرة الأشباح عن نفسها. لا ضرر إذًا ولا كبير مخاطرة في التعري أمام الذات، ثم إن هذه ليست رسائل، كيف تكون كذلك وهي مجرد جمل تفتقد الاتساق! كما أنه لا يكتبها، فقط يمليها على لا أحد. يبددها في الهواء.

ينتهي تجواله دومًا بالوصول إلى غابة أشجار البلوط الواقعة على أطراف المدينة والمنتهية بمنحدر لا نجاة منه. صارت المخبأ المثالي

---

(1) الجملة لفرانز كافكا من «رسائل إلى ميلينا».

له. يتسلل إليها كل ليلة. بردائه الأسود الطويل وقبعته الغريبة يصبح هو والليل قطعة واحدة.

في الغابة، يتحول إلى متوحد يعيش لحظة بلحظة، ولا يكف عن التجوال بين جذوع الأشجار، حتى يصل إلى بقعته المفضلة في مركز الغابة التي تهب عليها الرياح فيُصدِر حفيف الأوراق صريرًا، يضاعفه صمت المكان، فيبدو كصراخ مكتوم. داخل الغابة المعتمة متشابكة الأغصان، يسير متذكرًا حياة سابقة كان فيها ناسكًا صينيًا، مُثبِّتًا قلبه على جوهر الفراغ، وعارفًا بحكمة «الطاو».

يتخبط بين جذوع الأشجار مستنشقًا روائحها المخلوطة بعطن الأوراق المتحللة بفعل المطر. في الصباح يتبلل بالندى فيغمض عينيه، ويرمي نفسه على الأرض الرطبة المظللة بالأشجار وهو يكاد يبكي اشتياقًا إلى كل ما لم يعرفه أو يقابله. لطالما تاق إلى الرؤية لا مجرد النظر، إلى التحديق في عين العالم، لكنه في عتمة غابة البلوط، ذات الصرير المنذر بالشرور، استعذب استحضار إحساس المحدِّق داخل ذاته والمنفصل عن ما عداه.

تروقه فكرة الغابة. المحيطات أكبر، والصحاري الممتدة بلا نهاية قد لا تُقارَن بها هذه الغابة من حيث المساحة، لكن الغابة - أي غابة - لا حدود لها في عين السائر بداخلها، تورثه الإحساس بأنه نقطة في محيط شاسع لا نهائي، تسلمه إلى التيه. ربما لأنها غامضة، كابية الإضاءة أو حتى معتمة في بعض مناطقها.

يغمض عينيه منصتًا لأصوات الغابة المتداخلة: حفيف أوراق، هسيس حشرات وهوام، نعيق غربان، نعيب بوم، وزمجرة حيوانات موشكة على الاقتتال على مبعدة. تتكثف رائحة العطن والرطوبة في أنفه ممتزجة بالرائحة العضوية لأشجار البلوط إذ يحملها الهواء الثقيل.

ينهض مواصلًا خطوه حتى يصل إلى طرف الغابة من الجهة الأخرى، حيث صخرة ضخمة تتوسط بقعة، يصلها الضوء بالكاد، يجلس فوقها مجترًا حيواته السابقة، وحالمًا بشخصيات وكائنات وعوالم مختَرَعة. ينظر للأعلى فيبصر الأغصان الكثيفة وقد حجبت السماء، فيتخيل سماءً أخرى، ترتسم على صفحتها رسومات ملونة تمر مر السحاب وتُغنِي عنه. سماء مغايرة تحتضن عالَمًا أكثر ألقًا من العالم الحقيقي. أحيانًا يشعر بشوق مُحرِق لحياته السابقة كغجري لا يستقر في مكان، قبل أن ينفض الشوق عنه خوفًا من إمكانية تحوله إلى شهوة تتملكه، فيرحل طمعًا في إشباعها.

كأنما يحاول إقناع نفسه يقول: «يكفيني ما رأيت، وما سبق وعايشت في الماضي». بات مقتنعًا بأن العالم بأسره حلم خطر له ولم يفق منه بعد. عاش سنوات طويلة – من حيواته السابقة – هائمًا على وجهه في الطرقات، وعلّمه ترحاله أنه لن يتعلم منه شيئًا إلّا بالتعرف على ذاته أولًا والغوص فيها. «يكفيني ما رأيت»! يكرر بينما يتحرك بين جذوع الأشجار، أو يتخبط في شوارع المدينة الغريبة.

«يكفيني ما رأيت، وما سبق وعايشت في الماضي»! يُهيَّأ له أن الجملة ترددها خلفه كائنات تتخبط في فخاخ ووهاد لا نهائية، مثله تخترع عوالم سرعان ما تمل منها، فتعود لواقعها المحيط، وحين يلفظها تعيد اختراع عوالم جديدة، آملةً أن تُخرِجها في النهاية من تلافيف عقل ذلك الناسك المتخبط في عتمة غابة.

خلال عمله كأمين مكتبة، اعتاد أن يقضي معظم وقته بين الكتب منتظرًا روادًا محتملين. عرف أن الناس تفضل الذهاب إلى الشواطئ والمطاعم والحانات. راقب الغبار بينما يتراكم فوق المجلدات، ثم بدأ الانغماس في القراءة كأنما يواسي الكتب عن تجاهل الآخرين لها، ويعزي المكتبة الفارغة من الحياة معظم الوقت. تحول الأمر من عادة

إلى إدمان. فكر في أن يكتب، شرع في مشاريع كتابية عديدة سرعان ما هجرها. «مكتبات العالم ليست في حاجة لإسهاماتي!». أقنع نفسه بهذا لأنه أدرك باكرًا أن الكتابة محاولة لنحت تمثال ثلج عند خط الإستواء. كلمات تذروها الرياح، تبجح وانخداع بوهم الخلود. وإيمانًا باستحالة مفترضة ورفضًا للتبجح والانخداع بوهم الخلود، فضَّل أن يكتب نصوصه على الهواء، أو يخطها على الرمال بيد مرتعشة، ويسارع إلى محوها في الحال. على طريقته الخاصة وبطقوس غير مفهومة لسواه، أخذ يمجد الفَنَاء ويتعبَّد في محراب العدم. لطالما كان وسوف يظل ابنًا مخلصًا للعابر والمتطاير.

ليس كغيره من المستسلمين للعدم منذ البدء غارقين في الكسل مدَّعين أن كسلهم هذا طريقتهم في التماهي مع اللاشيء، فمتعته القصوى تمثلت في الهدم بعد التشييد، في ملاعبة الرغبة في الإنجاز وتنميتها قبل السقوط بها ومعها من حالق لتتكسَّر إلى مئات الشظايا، ويتردَّد صدى تحطمها في المسافة بين الأرض والسماء.

مع الوقت، صارت له علاقته الخاصة بالسماء. سماء زرقاء ونقية ليس ما يبتغيه، إذ يفضل عليها سماءً تختلط زرقتها العميقة بأبيض السحب ورمادي الغيوم. من وجهة نظره، تشكيلات السحاب هي ما يمنح السماء رونقها ويضاعف غموضها ويمنع عن متأملها الملل.

سماء هذه المدينة الغريبة كتاب أبجديته الغيوم ومسرح يتطلب مُشاهِدًا فطنًا لالتقاط أرهف العلامات والعروض المُشفَّرة المقدمة بلُغة الخَفاء، لُغة الغيوم. حين يدقق جيدًا وينجح في فك شيفرات هذه اللغة، يرى في صفحة السماء: بيتًا معلقًا بين السُحب، امرأة في صورة وردة تتدحرج من فوق تل، ورجلًا وامرأة جالسين على مقعد يرنوان نحو بئر، خلفهما بستان زيتون وأمامهما صحراء شاسعة، وطفلة تطيِّرها ركلة لتصطدم بالجدار المقابل فتحترف بعدها السقوط من علٍ، وصغيرًا

يتسلق الأشجار، وكوخًا خشبيًا - تغطِّي عرائش الورد واجهته - على أطراف غابة.

كل هذا ليس محض تهيؤات، بل حقيقة ماثلة، تمامًا كمدينة خيالاته، هي موجودة وواقعية لأنها خطرت بباله، عقله المتعب أنشأها، وأضاف لها التفصيلة تلو الأخرى. حلم بها وسارت روحه في دروبها ومنحنياتها، بعيدًا عن ثقل الأنقاض ورائحتي البارود والاحتراق المحتلتين لرئتيه.

في ناموسه الشخصي، هذا أكثر من كافٍ كي يجعلها كاملة الواقعية، تمامًا كالأشباح المترائية له حين يغمض عينيه، ويحاول تناسي أنه لا يشعر بالنصف الأسفل من جسده.

ما عليه حين يرغب في إزاحة التراب والركام من فوقه، وإبعاد صدى الصراخ والعويل عن أذنيه، سوى إغماض عينيه وتخيل غابة متشابكة الأغصان. مظلمة ورطبة. جذوع أشجارها يعلوها فطر أخضر، وتتسلقها نباتات تكاد تخنقها. بالتركيز جيدًا في الغابة التي احتلت ذهنه لتوِّها، والتدرّب على التوهان بين دروبها المتقاطعة، سيرى نفسه فيها: شبحًا وحيدًا بملابس داكنة وقبعة تلقي بظل داكن على ملامح وجهه الحادة، شبحًا يترنح في سيره من درب لآخر. مع كل خطوة يخطوها قرينه الشبحي ستُشيَّد المدينة تدريجيًا في رأسه هو ثم أمام عينيه، وتحت أقدامه، بشرط أن ينفصل تمامًا عن وضعه الراهن ويتناسى آلامه ورائحة الموت المحلقة فوق رأسه. عليه تحرير قلبه من كل المشاعر الزائلة، وتثبيته على جوهر الفراغ، تمامًا مثل قرينه الشبحي، وحينها لن يسمو فقط فوق ضعفه وعجزه، بل سيكون أيضًا من العارفين بحكمة «الطاو».

***

يغمض عينيه فتحرقانه كما لو مستهما مادة كاوية. يغيب عن الوعي، وحينما يفيق مجددًا، يشعر كأن هناك من يضرب رأسه بشاكوش. يهاجمه

الجوع بضراوة، ويتضاعف التهاب حلقه. يتذكر كيف كان يفضل تناول غداء سريع من عربة طعام في ساحة بيع المأكولات القريبة من مقر المكتبة: يشتري سلاطة خضراء في عبوة بلاستيكية وشطيرتيّ «هوت دوج» أو «هامبورجر»، ويقطع الطريق ليجلس فوق مقعد رخامي مثبت على رصيف الكورنيش. يدير ظهره للشارع، ويلتهم غداءه بشهية بينما يرنو نحو النهر متأملًا الجانب الأحدث من المدينة على الضفة الأخرى. مع الوقت، باتت تلك عادة لا غنى له عنها في استراحة الغداء. أحيانًا تجلس بجواره على المقعد نفسه أو على مقعد مجاور شابة تتناول طعامها بسرعة ثم تغادر. اعتاد مراقبتها وهي تعبر الشارع متفادية العربات برشاقة لاعبة أكروبات. قرر أكثر من مرة أن يبادرها بالحديث، لكنه كان يؤجل هذه الخطوة بحجج متنوعة. بالأمس فقط قال إنه سيتعرف عليها في الغد، أقنع نفسه أنه رآها أكثر من مرة تختلس النظر له حين تظنه غير منتبه لها. لمحها تبتسم لنفسها وهي شاردة فأعجبته بسمتها، وحين التقت عيناهما أحب ألق نظرتها.

ضاعف التفكير فيها من أوجاعه، حاول تحريك يديه، فلم يفلح. أطبق جفنيه وعاود التفكير في مدينته المتخيلة. راقه أن تكون معالمها متغيرة على الدوام، وأن تغيرها المفترض هذا، لا يسير وفق نموذج منتظم يمكن التآلف معه وتوقع خطوته التالية، بل يترك نفسه للفوضى متحالفًا معها راقصًا على ألحانها.

لا بد أن التركيز في مجريات التبدل الدائم يُسلِم إلى الدوار، لذا لا عجب إن غصت طرقاتها بأجساد مترنحة لا تكاد تقوى على المسير. تخيل نفسه يقوم من بين الركام مجددًا، ليواصل سيره في ممرات الغابة ودروب المدينة. قرر أنه وحده من يتقن التعامل مع دوار المدينة المتأرجحة متبدلة المعالم. يقطع شوارعها غائبًا عمّا حوله غافلًا عنه، ومحدقًا في نقطة ثابتة في الفراغ المواجه لعينيه.

في غفلته وتوهانه تتراءى له مشاهد حيوات سابقة يوقن أنه عاشها وتنقل فيها من حال لآخر ومن هيئة لأخرى. تخاتله شذرات حيواته وشظاياها وتلعب معه:

مَرّة راعي غنم، يعيش فوق إحدى هضاب آسيا الوسطى في عصر بالغ القِدم، لا شيء حوله سوى مراعٍ بلا نهاية، وتغريد طيور بعيدة، وعواء ذئب اعتبره عدوه الأول خوفًا على أغنامه.

تزوره هذه الذكرى، فينقبض قلبه: ما أبأس حياة تتمحور حول قطيع غنم.

ومرة أخرى كان ريفية في قرية يغمرها الظلام في دلتا النيل، قبل قرون. امرأة وحيدة تخاف فيضان النهر، وتقيم في بيت طيني معزول، تسهر الليالي مترقبة أصوات الخارج، خائفة مما قد يفاجئها به الليل الحالك - صديق النباح والعواء والعويل - الذي باغتها يومًا بطرقات على بابها الخشبي المتهالك، وبغريب داكن يطلب منها مكانًا يبيت فيه، وقبل أن توافق أو ترفض، بادرها بالدخول والجلوس على حصيرة الأرضية، وانشغلت هي بالتفكير في طريقة لإقناعه بالمغادرة.

يشعر أنه لا يزال تلك المرأة، بطريقة أو بأخرى، ثم تغيب الذكرى وتضمحل.

كان أيضًا نحاتًا في جزيرة الفصح يجلس متعبًا فوق قمة ما يتأمل تماثيله هائلة الحجم، وينظر للأسفل فتتملكه رغبة في السقوط وفي تحطيم كل ما ضيّع عمره في نحته، وكان جنديًا صينيًا قديمًا يركض فوق سور الصين العظيم - بعد هلاك حصانه - لإبلاغ قائده بزحف العدو صوب مدينتهم.

أي عدو؟ وأي مدينة؟ لا يمكنه الإجابة.

في قرية آسيوية منسية، كان طفلة حافية تحرس حقل أرز. تهش العصافير عن السنابل المثقلة بالحب. كان ثمة عصي متوازية، بامتداد الحقل، موصول بها أسلاك معلق فيها علب صفيح بداخل كل منها قطع معدنية صغيرة، تهز الطفلة طرف أحد الأسلاك فتتصاعد قرقعة معدنية مزعجة. تفزَع العصافير وتحلِّق بعيدًا، قبل أن تعاود هجومها بعد قليل، والطفلة تجري متعبة من ناحية لأخرى تقرع الأسلاك صانعة الضجيج، فتبدو كموسيقيّ منهمك في العزف على آلة عملاقة. تستفزها خيالات مآتة تقف الطيور فوقها بلا خوف، ويضايقها عطن المياه في الحقل الشاسع، فتغمض عينيها حالمة بوجبة ساخنة ليلًا ونوم تحملها أحلامه إلى عالم خالٍ من الضجيج المعدني ومن خيالات المآتة والعصافير.

لكن أفضل شذرات حيواته السابقة، تلك الموحية له بأنه كان دودة قز يومًا ما. يتخيل نفسه دودة نهمة في براح من أوراق التوت الشهية، يلتهم الوريقات حتى لا يعود قادرًا على التنفس، ثم ينسج شرنقة من خيوط الحرير يختفي بداخلها. يا للهشاشة والجمال، وحده في دفء الشرنقة وظلامها ينتظر أن يختار له القدر أحد احتمالين لا ثالث لهما: إما أن ينبعث من شرنقته فراشةً حرة قصيرة العمر تشتري حياتها بتدمير ما نسجته من جمال حريري، أو أن يسبقه صانع حرير ويغرقه، وهو داخل شرنقته لا يزال، في ماء ساخن كي يتخلص منه وينقذ الخيوط الثمينة من التدمير.

أي فداحة! وأي بهاء متوارٍ خلفها!

***

يشعر بتيبس جسده، تسحبه ضجة قريبة من أفكاره، يأمل أن تكون دلالة على حياة محتملة بالجوار، ثم يخمن أنها ناجمة عن انفجار محدود على الضفة الأخرى للنهر. يتضاعف تيبس جسده. يعن له أنه

مشلول بالكامل، لا شيء قادر على الحركة فيه سوى مقلتيه وأفكاره، لكن حركة مقلتيه لن تفيده كثيرًا لأن ما يراه مهزوز وغير واضح.

يفكر في قطار - يعمل بالفحم - يجوب مدينة خيالاته من أولها لآخرها، يتوقف بالصدفة أو حينما يروق الأمر لسائقه والأمر نادر في الحالتين. عبر نافذة القطار فقط تثبت معالم المدينة نسبيًا، بحيث يمكن لرواده القليلين، تأمل المشاهد المتلاحقة بالخارج. المشكلة الوحيدة، أنه من داخل القطار، كل شيء يبدو بالأبيض والأسود مع الكثير من الرمادي العالق بينهما. القطار المتهالك، السائر دومًا في مساره الحديدي المربع على حدود المدينة، يخرج منه كم هائل من دخان يطغى على كل شيء، فتتحول السحب إلى تشكيلات فحمية منذرة بالشر، والأشجار إلى كائنات داكنة عملاقة، تحركها الرياح، فيخال لمن يشاهدها أنها على وشك السقوط فوق الماكينة المتهالكة وركابها.

من حسن الحظ، أن المنظر من خارج القطار مختلف، فالألوان كما هي، متمسكة بتنوعها والاختلافات بينها. ثمة فقط غبار دخاني فحمي اللون ينطلق من المدخنة المتحركة، قبل أن يتلاشى في الهواء.

ما أن يصغر القطار ويغيب، حتى يتمنى الناسك العارف بالطاو أن ينكسر ويتحول إلى ركام، أو يسقط من فوق المنحدر الخطر ولا يراه أحد بعدها. فالمدينة لا ينقصها ضجيجه الدافع للجنون.

يحلو له أن يركبه لساعات طويلة. ينهمك في العزف على آلة يتبدد نغمها ما إن ينبعث منها، دون أن يتأثر هو أو حتى ينتبه. يفكر في أن سقوط القطار، لو حدث، سوف يناسبه حتمًا، إذ سيمنحه مادة مناسبة للتأمل، إضافة إلى أنه لن يصاب بسوء. سوف يجد سريعًا طريق العودة إلى الغابة المظلمة، وفيها سوف يحلم بالقطار ويشتاق إليه، وفي القطار يتمنى السقوط والتدحرج إلى ما لا نهاية، أما داخل حلقة النار فيغيب عن

كل ما يعرفه، ويتوحد بالنار ناظرًا للعالم عبر اهتزازات لهبها، منغمسًا في ترنيمة ينساها ما إن يفيق.

على مهل، تخفُت المدينة بقطارها وغابتها المعتمة ودوارها في عقل الراقد بين الأنقاض. يستحضر جلسة غدائه اليومية، إحدى المتع القليلة في حياته. يكاد يرى شابة برشاقة لاعبة أكروبات قادمة نحوه مبتسمة. تجلس بجواره، تتأمل مثله نهرًا تغلي مياهه وتتصاعد منها أبخرة نحاسية كريهة الرائحة. تُخفي الطائرات المعادية السماء ويتجدد القصف، يقبض على يد جارته مطمئنًا إياها، وممتنًا لأنه - هذه المرة على الأقل - ليس جاثيًا على ركبتيه بين ممرات مكتبة مهملة.

فُلك ابن منظور

قرأت كاميليا قصة آدم المعنونة بـ «ناسك في غابة»، فسكنتها غابة رطبة ومدينة زائلة. لاحظت أنه استفاد فيها من تفصيلة بيت السُحب، بعد أن كانت قد حكت له عن مخايلته لها، من آن لآخر. استعادت مخيلتها بيتًا أشبه بقلعة معلقة بين السحب، يقبع معزولًا فوق تل، البيت القديم تحيط به حديقة شاسعة غير معتنى بها، تنفتح على غابة مصغرة من أشجار الكافور والجازورينا والحور، ومسيَّجة بسور بالغ الارتفاع.

من الخارج يبدو منذرًا بالشر، إذ يُشبِه سجنًا يُنسَى نزلاؤه وتتجاوزهم الحياة، ومن الداخل يقترب من «بيت جُحا»، غير أن ما يضفي على منظره مسحة من جمال خافت هو موقعه المرتفع عن سطح البحر، ما يوهم الناظر إليه بأن السحب منخفضة، بحيث يبدو الدور العلوي منه كما لو كان معلقًا بينها.

البيت البادي للناظر من بعيد كقلعة معلقة في الغيوم، وسبق لها تخيله مرارًا من قبل، هو ما أوحى لها بكتابة قصة ترد بها على ما كتبه آدم، وفي الحال تشكلت الملامح العامة للقصة وعنوانها في مخيلتها: «حيث السحب منخفضة». عنوان لا يشي بالمتن، وهذا ما راقها فيه.

رأت بعينيّ خيالها، رجلًا قوي البنية - رغم اقترابه من الستين - يقف

منزويًا ملتصقًا بسور عالٍ، وأربعة قناصة يصوبون نحوه بنادقهم، بينما يحدق هو في نقطة ثابتة أمامه، وعلى وجهه ترتسم أمارات الترقب لا الخوف.

كتبت المشهد الافتتاحي بسرعة كأنه موجود بداخلها منذ الأزل، وما عليها إلّا الكشف عنه وإخراجه إلى حيز العلن. هُيِّئ لها أنها ترى البيت القاتم والسُحب تخترقه وتمر به، تسير في أروقته الداخلية ودهاليزه، وتستريح فوق آرائكه ومقاعده المتهالكة، الدالة على عراقة ماضيه:

«أمام بيت معزول فوق تل، أنزلته عربة عسكرية سوداء ذات زجاج معتم، ثم خرج، في أثره، جنديان يحملان سلاحيهما.

لحظة رفع رأسه لتأمل الهيكل المهيب للبيت المتهالك، توقفت عربة ثانية خلف الأولى مخلفةً عاصفة من غبار. ترّجل منها أربعة جنود أكثر شراسة من زميليهما. اتجهوا نحوه بصبرٍ نافد، ودفعه أحدهم بمؤخرة البندقية كي يدخل، فكاد يفقد توازنه.

أجال بصره في أحراش تقبع في وسطها «الفيلا» المهجورة دون أن يبدي أي تعبير. منذ سحبوه من فراشه في الصباح حافظ على وجه المقامر مستعدًا لأسوأ السيناريوهات. جبن رفاقه القدامى عن مواجهته. أرسلوا فرقة لا يعرف أيًا من أفرادها لاصطحابه. اكتشف انسحاب الحرس الجمهوري من القصر، وتسليمه للقوات الخاصة. اقتحموا غرفة نومه وأفزعوا زوجته. أمروه بالتزام الهدوء وعدم المقاومة. «هتفضل ضيفنا لمدة». كان هذا كل ما باحوا به. رفضوا السماح له بالاتصال بمساعديه. «أوامر وزير الدفاع». لم يضيفوا إيضاحًا آخر.

تسللوا به من باب خلفي، وأدخلوه العربة العسكرية ذات الزجاج المعتم، وتبعتهم عربة أخرى مصفحة.

شعر، خلال الشهور الأخيرة، بأن الحلقة تضيق حوله. لم يكن

هناك شيء ملموس، إنما إحساس غريزي كان عليه الوثوق به وأخذ الاحتياطات اللازمة. قبل سنوات كان معهم وهم يراقبون قائدهم متجهًا إلى حتفه مغمض العينين، تاركين له الحبل الذي سيشنق نفسه به، استغلوا أخطاءه لإحكام الحصار حوله وسلموا رأسه على طبق من فضة لمغتاليه. عرفوا مبكرًا بأمر الخلية السرية المتآمرة عليه، سجلوا اجتماعات أعضائها، تناهى إليهم أدق تفاصيل مخططهم، وجهزوا خطة مضادة. لم يحذروه. صحيح أنهم لم يجرؤوا على إخفاء الأمر كليةً عنه، لكنهم حرصوا على إبلاغه به بطريقة مهونة من المؤامرة موحية بأن كل شيء تحت السيطرة. من خبرتهم به كانوا واثقين من أنه وصل إلى حالة من النشوة والافتتان بالذات لن يلتفت معها لأي تحذير ولن يصدق أي إشارة عن تحركات مناوئة له. بالنسبة لهم كان القائد رجلًا ميتًا منذ زمن. أصبح وجوده خطرًا على الجميع لا على نفسه فقط. صار زائدة دودية يجب استئصالها لإنقاذ باقي الجسد.

لكن ماذا عنه هو؟ حاول تخمين نقطة مفترضة غسل الرفاق عندها أيديهم منه، فلم يفلح. لفت نظره أنهم لم يغتالوه مباشرةً ولم يدبروا انقلابًا صريحًا. استبعد أن يكون هذا ما هم مقدمون عليه، ليس قبل فترة على الأقل.

لم ينتبه إلى أنه توقف عن السير إلّا عندما لكزه جندي آخر ببندقيته حاثًا إياه على صعود سبع درجات تقود إلى شرفة «الفيللا». أحاط به الجنود الستة في الشرفة، من الداخل ظهر ضابط برتبة عقيد، شد الجنود قاماتهم وحيوه تحية عسكرية، رد عليها بحماسة. وتصرَّف كأنه لا يرى السجين رفيع الشأن أو «المُنقذ» كما سيروق لهم أن يطلقوا عليه ساخرين.

أشار الضابط للجنود أن يوصلوا «ضيفهم» إلى الغرفة المخصصة له. بحرص تركوه فيها وأغلقوا الباب خلفهم. وصلته أصواتهم من الخارج. في الطريق إلى هنا لم يوجه أحدهم كلمة له، كما لم يردوا على أسئلته،

فتوقف عنها. الغرفة شديدة التقشف، فتشها بدقة ولاحظ خلوها من أي أداة حادة. استلقى على السرير بملابسه وحذائه، وأغمض عينيه محاولًا تجاهل الصداع الأشبه بإعصار يضرب رأسه منذ الصباح. نام رغمًا عن الصداع».

رفعت كاميليا رأسها عن حاسوبها قليلًا، وفكرت مندهشة في قدرة الخيال وأجنحته المحلقة، خطر لها أن تبحث في المعاجم القديمة عن مترادفات مفردة «الخيال» وأن تتفحص معانيها ودلالاتها المتنوعة. أغوتها هذه اللعبة اللغوية، ورغبت في إغراق نفسها في معجم «لسان العرب».

أضحكتها المفارقة الساخرة؛ أن يُغرِق شخص ما نفسه في «لسان العرب» لهو تناقض مع رؤية واضع المعجم لعمله، ماذا كان «ابن منظور» ليقول عنها، هو الذي أراد لمعجمه أن يكون فُلك نوح لإنقاذ اللغة العربية ونقلها إلى بر السلامة!

«فجمعتُ هذا الكتاب في زمن أهله بغير العربية يفخرون. كما صنع نوح الفُلك وقومه منه يسخرون».

تلك كانت كلماته، وما أجملها من استعارة: تخيُل أن كتابًا ما أشبه بفُلك، حمولته الكلمات والمعاني، يمخر عباب بحر صاخب، يرفعه الموج ويهوي به، والكلمات تتخبَّط إحداها في الأخرى فتتداخل المعاني وتتحرر منتقلة إلى فضاءات جديدة.

كتبت كاميليا في أوراقها عن الإيحاءات السلبية لمفردة الخيال، عن ربطها بالظن والتوهم والمُشكِل من الأمور وما يتراءى للمرء في اليقظة والحلم من صور. لفتت نظرها، العلاقة بين السحاب وأحد مشتقات مفردة الخيال. فالخال هو: «السحاب الذي إذا رأيته حسبته ماطرًا ولا مطر فيه»، «وتَخَيَّلَت السماءُ أي تَغَيَّمَت». و«يقال خَيَّلَت السحابةُ إِذا أَغامتْ ولم تُمْطِر».

اعتبرت كاميليا الصلة المُقترحة من «لسان العرب» بين السحاب والخيال، علامة على اختيارها الموفق لعنوان قصتها الجديدة. ترجمت لآدم ما وجدته ذا علاقة بالظل.

كان آدم قد حكى لها عن علاقته بظله أثناء طفولته: خوفه منه ورغبته في إلغائه. وهي تتصفح «لسان العرب»، قرأت عن الطائر «خاطف ظله»، ذلك الذي يراوغه خياله إذ يرتفع عن الأرض فيُهيأ له أن ظله صيد، فينقض عليه ليواجهه الفراغ واللاشيء.

فكرت في آدم على هيئة طائر خاطف لظله مسكون بخياله فوجدت أن الخلطة تنقصها مسحة الخوف المخيمة على حياة آدم وبالأخص طفولته، لكن من يعرف! ربما يكون الخوف اللامنطقي من سمات هذا الطائر - غير المعروف لها - أيضًا.

كائن آخر ربطه «لسان العرب» بالظل هو الظبي، من ضربت به العرب المثل في الترك والنفور، فالرجل النَّفور مثل الظبي لأن الأخير إذا نفر من شيء لا يعود إليه أبدًا. يقول المثل: «اتْرُكهُ تَرْكَ الظَّبْيِ ظِلَّهُ»، غير أن آدم وإن كان أول الراغبين في ترك ظله، إلّا أنه دائمًا ما يعود إليه لتفحصه وتأمل دلالاته واحتمالاته، كما أنه لا علاقة له بالترك والنفور، هو المسكون بماضي جدته غير المصرح به، والراغب في استعادته وتشييده والسكن فيه لا هجره ونسيانه.

هذا على الأقل، ما همست به أسراره لكاميليا، حين باح لها بها في الباحة الأمامية لمتحف كافكا ببراغ، حيث جلسا لوقت طويل، قبل أن يتوجها لتناول الغداء في مطعم «مالوسترانا بيفنيتسا» المواجه للمتحف، ويتجولا معًا بعدها في المدينة القديمة، ويتسكعا بميدان «ستارومياسكا» مختلطين بجموع المحتفلين الراقصين فيه على وقع موسيقى صاخبة.

أرسلت كاميليا رسالة إلكترونية لآدم بالجمل المترجمة، وعادت

للتفكير في «حيث السحب منخفضة»، وفي كونها امرأة مختالة وفقًا للحديث ضعيف النسب: «لا يقص على الناس إلّا أمير أو مأمور أو مختال». تساءلت هل هي مصادفة أن الخيال والاختيال من جذر لغوي واحد؟

ألحت عليها من جديد، فكرة الكتاب- السفينة المنقذ من الغرق، تخيلت كلمات غريقة، وحروفًا تذوب في الماء كفصوص الملح، ومؤلِفًا يطمح لانتشالها وحفظها في فُلك أفنى أيامه ولياليه في بنائه، فُلك يغرَق البشر في صفحاته وبين مواده، غرقًا إبداعيًا.

لكن ماذا عن العكس؟ أليس أكثر إغراءً؟

في مقابل كتاب يطمح إلى أن يكون فُلك نوح المنقذ للّغة والحامل إياها إلى بر الأمان، لا بد من وجود كتاب له أثر الفيضان وفِعله، يطيح بكل ما يقابله ويشظّي كل ما فيه. كتاب يُغرِق شخصياته وقرّاءه في بحار لا نجاة منها، ويبتلع كلماته ومعانيها في فجوات مظلمة بداخله.

خطر لكاميليا أن هذا هو الغرق الجميل، تخيلت الكلمات الطافية فوق السطح بعد أن فقدت معانيها. كانت لتقول إن الكلمات في حالتها هذه هي أجمل الغرقى، لكن منعها اعتقاد راسخ بداخلها مفاده أن كل الغرقى جميلون بالضرورة والتعريف. أجساد طافية على سطح الماء بأعين رائية. في الأعماق، في غياب الشمس والأكسجين، وفي حضرة الطنين والاختناق، جاءت لحظة الإشراق، حيث الرؤية بمعناها المطلق.

شغلها، من جديد، مصير بطلها الواقف في مرمى نيران القناصة المحتملة، هل سيتحول جسده إلى مصفاة من كثرة ما اخترقته الطلقات؟ أم تختار له مصيرًا آخر فتغرقه غرقًا حرفيًا أو مجازيًا؟

لسبب عجزتْ عن تحديده بدا لها بطلًا تراجيديًا منذ الكلمة الأولى في قصتها. ربما هيكل البيت القاتم وعمارته الكئيبة هما ما أوحيا لها

بهذا، وربما عزلته وارتفاع التل الذي يستكين فوقه، وربما حتى السُحب المنخفضة رغم جمالها أو بسببه.

لا يمكنها الجزم بمصير بطلها النهائي، قد يفاجئها - أثناء الكتابة - مقترحًا عليها مسارًا آخر للأحداث، وقد تحذف المشهد الافتتاحي لاحقًا وتبدأ قصتها وهو مقيم فعلًا في البيت القابع فوق التل. ما عليها إلّا الصبر ومواصلة الكتابة والإنصات لهمس بطلها كما كانت تنصت لرفاق الطفولة الخياليين، وتخترع لهم حكايات مستقلة، ثم تستلهمها لاحقًا لاختراع حيوات بديلة - عن حياتها مع أبويها - تقصها على صديقات الدراسة.

ليس الأمر أنها كانت تتبرأ من أهلها، أو لا تحبهم كفاية. كانت فقط مسحورة بتخيل فضاءات أخرى، إمكانيات وخبرات تتيحها لها أحلام يقظتها وأكاذيبها. في الحقيقة لم تكن تكذب، وتلك كانت مشكلتها أو مشكلتهم لوشئنا الدقة، كانت تصدق تمامًا ما تحكيه. عندما تخبر زميلاتها أن أباها طبيب يقضي وقته بين عيادته وغرف العمليات أو طيار ينتقل من مطار لآخر، أو مهندس بترول يعيش في موقع ما بصحراء بعيدة، كانت تندهش حين تعود إلى البيت، وتجده قد استيقظ لتوه، وعلى وشك بدء نهاره بعد الآخرين بساعات طويلة. لم تنتبه وقتها إلى أن كل الحيوات والمهن التي اختارتها له كانت تتطلب أن يكون بعيدًا نائيًا بحيث لا تراه إلّا لمامًا.

اكتشفت الأخصائية الاجتماعية في المدرسة ما تقوم به، واستدعت ولي أمرها. بهدوء شرحت لدولت أن حكايات ابنتها واختلاقاتها، إلى جانب دلالتها على مخيلة واسعة، تشير أيضًا إلى علاقة مضطربة بأسرتها. سألت أسئلة شخصية متتالية لم تدرك كاميليا مغزاها، وإن لاحظت أن إجابات أمها مراوغة وتجانب الحقيقة.

في البيت خضعت لمحاكمة مطوَّلة، لم ينطق فيها الأب المتجهِّم بكلمة، وأعلنت الأم، في نهايتها، أنها تشعر بالعار لأكاذيب ابنتها، ولا تفهم مبررًا لها.

«أملي خاب فيكِ!». قالت دولت وواصلت كاميليا النظر للأسفل ولم ترد.

«مش قادرة أصدق نفسي! حفيدة صافيناز هانم تطلع كدابة!».

جملة لم تكن دولت تمل من تكرارها في تلك الفترة، فلا تفهم كاميليا ما وجه الغرابة في الأمر؟ ما الذي يمنع حفيدات صافيناز هانم أو صافيناز هانم نفسها من الكذب؟ كفت عن الدفاع عن نفسها، إذ لم تكن هي نفسها واعية بدوافعها لاختلاق حواديت وسيناريوهات لا علاقة لها بواقع حياتها. كانت مختالة تقص على الناس فلا بد لها إذًا من عقاب.

خلال شهور قليلة لجأت إلى الكذب مضطرة. في الصف السادس الابتدائي، ومع لقائها الأول بمادة الإنشاء، حين كتبت موضوع تعبير، انحفر بداخلها كوشم، لأن المدرس رفض تصديق أنها كاتبته مؤكدًا أن شقيقتها الكبرى كتبته لها، كان غاضبًا لدرجة خافت معها أن تخبره بأنها ابنة وحيدة بلا شقيقات أو أشقاء. ظلت واقفة في مقدمة الفصل تسمع اتهامات الرجل وتهديداته، ولمّا أيقنت أنه لن يصدقها أبدًا، اضطرت لإخباره باكية أن أمها ساعدتها في كتابة الموضوع، وحرصت بعدها على ألّا تثير شكوك مدرسها مرة أخرى. امتنعت عن الكتابة ما استطاعت.

غير أن الكلمات الموءودة احتلت مخيلتها، بعدما دُفِنت بداخلها، ولم يعد لها من منفذ في سيناريوهات متخيَّلة تقصها على زميلاتها، أو موضوعات تعبير لن يصدق المدرس أنها لها.

«ستكونين فنانة»، قال لها مدرس رسم لا تذكر اسمه، حين حكت له عن أشباح مخيلتها، فلم تجد في كلماته عزاءً.

قال: ارسمي مخاوفك.

فرسمت ورودًا وأنهارًا وبساتين فاكهة، وكتمت المخاوف عميقًا حتى هجرت الألوان وكراسات الرسم، والتجأت من جديد إلى الكلمات، الكلمات الخوَّانة التي ليس من عادتها أن تحفظ سرًا.

بحماقة لا تتنازل عنها، كانت ترغب في الاختباء خلف الكلمات؛ في اختراع عوالم وخلق حيوات وأقنعة تتخفى وراءها وتموِّه بها على مخاوفها وأشباحها.

لم يخبرها أحد، وقتها، أن للكلمات طريقتها في الكشف عن الأعماق، وأن المخاوف ماهرة في الإعلان عن نفسها؛ إذ للخوف رائحة وقوام يصعب التمويه عليهما.

كانت القراءة ملجأً آمنًا لها، بين دفتيّ كتاب تشعر أنها في بيتها، حتى الآن تبكي تعاطفًا مع جاتسبي العظيم وتتفهم ولعه بدايزي، تخلط في ذهنها بين رام بطل «بيرة في نادي البلياردو» وبين مؤلفه الإشكالي وجيه غالي. يؤرقها مصير «أنا كارينينا»، وتجد نفسها عالقة في طوفان التفاصيل الصغيرة المشتعلة في ذهن السيدة دالاوي، يضحكها ويبكيها أوسكار ماتسيرات بطل «الطبل الصفيح».

الشخصيات الفنية هي ما يغويها، لا مبتكريها من الكُتّاب. ليست لديها أوهام رومانتيكية عن عباقرة الكتاب. على العكس، تؤمن تمامًا بأن بداخل كل منهم وحشًا يتغذى على ذاته والآخرين. معظمهم قاتل متسلسل، والإبداع وسيلته للتوازن أو للإيغال في تدمير الذات.

بالنسبة لها لا صحبة أجمل من صحبة الشخصيات المتخيلة. الكتاب، أي كتاب، فُلك نوح يحمل كلماته وشخصياته إلى شاطئ نجاة مؤقت، ينقذهم من فيضان اللغو المحيط حتى ولو إلى لغو آخر، لكنه لغو مُتحَكَّم به ومغلق عليه بين دفتين. العالم بحر صاخب لا يابسة في

أفقه، والكتب أفلاك تبحر فيه أو جزر تسعى إلى البقاء تحت الشمس حينًا والاستسلام لإغواء الانغمار التام بالماء أحيانًا.

لفترة قد تطول أو تقصر، ستظل بصحبة بيت يشبه قلعة معلقة بين السحب، ورجل يقف مستندًا إلى حائط في انتظار لحظة النهاية.

نظرت في ساعة يدها فاكتشفت أنها قضت الساعات، منذ استيقاظها، بين عوالم «لسان العرب» وقصتها المرجوة، وعليها التحرك إن أرادت المرور على منير في المكتب قبل موعدها على الغداء مع صديقة لها.

حيث السحب منخفضة

إلى آدم كوستاكي.. ذكرى غيمة ظللتنا، ولم تف بوعدها بالمطر!

كاميليا مجدي

رأى نفسه واقفًا في ساحة مكشوفة مستندًا إلى جدار، وفوق بناية قريبة يتحفَّز قنّاص مصوبًا البندقية إلى رأسه. شعور مخيف سيطر عليه وأعجزه تمامًا. ظل مسمَّرًا في وقفته لوقت طويل: لا القناص أطلق النار، ولا هو ابتعد عن مرمى القنص.

كل شيء حوله بدا مهتزًا: البناية، القناص، أشجار الحور القريبة، والحائط خلفه.

هو نفسه كان يترجرج كأنه سائل في إناء مرن. استولى عليه دوار مصحوب برغبة في القيء. مرّ بمواقف أصعب في حياته، بل كانت حياته سلسلة من المواقف الأصعب، ومع هذا أحس بانقباض لم يختبره قبلًا، ثم بدأ الدوار ينسحب رويدًا.

راح تأثير الحقنة اليومية. عادةً ما ينتبه بسرعة لبدء الغياب التدريجي لتأثيرها، يشبه الأمر انقشاعًا بطيئًا لشبورة صباحية، أو ذوبان مادة صلبة في ماء دافئ.

يتغير موعدها من يوم لآخر. «مجرد حقنة مهدئة». يقول الحارس كمن يخاطب نفسه. يتفحص الذراع بحثًا عن الوريد ثم يفرغ محتويات المحقن فيه، قبل أن يغادر الغرفة سريعًا.

كل مرة يُهيأ له أنه يشعر بخط سير الدواء وهو يسري في جسده جالبًا معه تنميلًا شديدًا. تثقل ردود أفعاله حتى تكاد تنعدم، يغدو غير قادر على رفع يده. ينغلق جفناه رغمًا عنه، ويلف رأسه كدوامة، ثم تنهال الهلاوس عليه. لا بد من أنها هلاوس لأنه يتذكرها بالكاد حين ينتهي مفعول المهدِّئ، وما يستعيده منها لا علاقه له - في الغالب - بحياته أو ماضيه.

تحمله ضلالاته إلى أراضٍ أخرى. يرى نفسه فوق قمة جبل والسحاب يمر بجواره بحيث يمكنه الإمساك به لو أراد، تزوره غابة أشجارها على وشك التجمد من شدة البرد، وفي بدايتها كوخ صغير - تغطيه من الخارج نباتات متسلقة بزهور أرجوانية وحمراء- ويخرج منه رجل وامرأة منشغلان بنفسيهما عمّا حولهما. كما يجد نفسه مرارًا وقد هرب من مكان احتجازه، وركض نحو الجانب الآخر من التل إلى أن لم يعد قادرًا على الحركة خطوة إضافية، فيقف مُشرفًا على الصحراء الممتدة بالأسفل، يُخيل له أنه يلمح بستان زيتون، على رأسه مقعد يجلس فوقه رجل وامرأة، وأمامهما بئر تمْثُل كحد فاصل بين خضرة أشجار الزيتون الباهتة وأصفر الرمال اللانهائية، ثم يتلاشى الرجل والمرأة والبستان والبئر، ويلحق به الحراس ويقتادونه مجددًا إلى محبسه، تدهشه العادية التي يعاملونه بها كأنه لم يفر منهم، لكنه سرعان ما يتناسى هذا ويستسلم لوهم جديد.

يدفس وجهه في الوسادة، ويغمض عينيه، محاولًا فصل وقائع حياته الحقيقية عن ضلالاته، فلا يفلح.

في الصالة شبه الخاوية، كان أحد الحراس يصرخ، مناديًا زميلًا له بلكنة ريفية خشنة. يتصرفون كأنه غير موجود، مع أنه موقن من متابعتهم لأخفت حركاته، بحث مرارًا عن «كاميرا» مراقبة في غرفته، فلم يجد. خمن أنهم يستخدمون نوعًا متقدمًا. في الصباح يتركون له بضعة أرغفة خبز وقطعة جبن، ووقت الغداء يضعون على الطاولة الجرداء طبق فول أو عدس أو في أحسن الأحوال قطعة لحم يابس مع أرز وفاصوليا تسبح في دهون كثيفة.

غرفته لا تُغلَق من الداخل بترباس، وهم لا يغلقونها عليه بالمفتاح من الخارج، بإمكانه فتحها وقتما يشاء للتجول في البيت أو الخروج للحديقة ذات الأسوار بالغة الارتفاع. والبوابة الحديدية، المغلقة دومًا بإحكام، يحرسها كلبان لا يكفان عن النباح طوال الليل، يجاوبهما عواء ينبعث من بعيد فيصل ضعيفًا. وما عدا هذا، فالصمت راسخ معظم الوقت.

من نافذة غرفته، حيث اعتاد الوقوف محدقًا في الفراغ الخارجي، يمكنه رؤية الحراس الستة: قطعوا شجرتيّ لوز ونظّفوا الأرض، ثم نصبوا خيمة كبيرة، قضوا النهار بكامله داخلها، يثرثرون بأصوات مزعجة، وهم يلعبون الورق. أعدوا شايًا فوق نار، أشعلوها في حطب، جمعوه من الحديقة، وواصلوا حكيهم، من غير أن ينظروا نحوه، أو ينتبهوا لمراقبته إياهم. يستفزه استرخاؤهم وتكاسلهم وتصرفهم كأنهم لا يعرفون من هو، ولا يدركون خطورة احتجازهم له.

يحاول تخيل مستقبله القريب، توقُع أين سيكون خلال عام مثلًا: سيُدفَن في حفرة بالصحراء الشاسعة أسفل التل؟ أم أن هناك بالفعل بئرًا - تجاور بستان زيتون - ستُلقى جثته في أعماقها، حيث الظلمة والبرودة؟ تستحضر تخيلاته رجلًا وامرأة جالسين على مقعد قريبًا من البئر المفترضة، غافلين عن أن قاع البئر يحتضن جثة. يطرد الفكرة

المزعجة من رأسه. في الغالب سيظل هنا «ضيفًا» على من لا يعرفهم ويتظاهرون بأنهم يجهلون هويته.

يشغل نفسه بتخيل سيناريوهات عنيفة محتملة؛ لأن هذا وسيلته الوحيدة للهرب من ذكرى صارت بمثابة الإطار لحياته الواعية، ذكرى يد مرتعشة تبحث - بلا طائل - عن قشة تتعلق بها.

وحدها تلك اليد لا ينساها، وحدها لا يقدر «الدواء المهدِّئ» على تبديد ذكراها، بل يشحذها ويقويها.

يد القائد المرعوبة وهي تتشبَّث بالكرسي في محاولة للصعود، فيما الجسد يرقد بالأسفل مضرّجًا في دمائه، وطلقات الرصاص تنهمر بلا توقف. لم يمد له يد العون. لم يفعل أي منهم. الرفاق انشغلوا بإخراجه هو سالماً، بينما تُرِك القائد مكللًا بنياشينه ورصاصات حوّلت جسده إلى مصفاة.

رأى المؤامرة تقترب. شعر بخيوطها وهي تُحاك حول القائد. لم يحذره، فحتى لو فعل، ما كان الرجل سينصت، كانت الكلمات ستتطاير حوله، كذرات غبار، فيما يحدق هو منتشيًا، في المرايا العديدة التي تكسو جدران غرفته المفضلة في القصر.

كان بجواره حين سقط. منحته السترة المضادة للرصاص حياةً أخرى، في حين رفض القائد ارتداء سترته، مهونًا من أي خطر محتمل، في ظل عشق الجماهير له.

حماه الرفاق هو، أحاطوا به وسحبوه إلى الخارج. أصبح أملهم الوحيد. في لحظة واحدة، بات القائد جزءًا من ماضٍ نازف، وعبئًا عليهم جميعًا التخلص منه، في ركضهم من أجل النجاة.

خلال آدائه اليمين خلفًا للقائد، رأى بعينيّ ذاكرته، اليد المتشبثة

بحياة تنفلت إلى الأبد. تجاهلها مخمورًا بنشوة الحدث، وظنها ستكف عن مخايلته.

يومذاك، صمم على ارتداء حُلّة مدنية، أخذ قرارًا - بينه وبين نفسه - بهجر الزي الرسمي بلا عودة أو ندم. هاجس ما وسوس له بأن الزي المُزَيَّن بالنياشين جالب للموت، بأنه وحده ما نادى القتلة وأغواهم.

خلعه، لكن لم ينزع بقاياه من داخله ولم يرغب في ذلك. من وجهة نظره، لم يكن مجرد رداء، أو علامة على نمط حياة بعينه. كان الحياة نفسها، وجهه ووشم النار على جسده. عهد لا تنبغي خيانته، وتكليف لا تنصل منه.

«لم نخنه حين تركناه لمصيره، ونجونا بحياتنا»!

كان يردد بصوت مجروح، ما أن يبدأ مفعول الحقنة في السريان، مبررًا مسلكه هو والرفاق بأن القائد، في تلك اللحظة، كان رجلًا ميتًا حتى لو لم تغادره الروح بعد. وبالفعل، بالنسبة لهم، مات القائد قبلها بسنوات، حين تخلى عن الحذر، وغرق في مراياه الخاصة.

في سنواته الأولى خلفًا للقائد، عاهد نفسه على ألّا يكونه، ألّا يفعل أي شيء يقربه منه. بالغ في محو كل ما يُذَكِّر به.

هجر المرايا لكنها لم تهجره. رأى وجهه منعكسًا في كل شيء، في الصور بالشوارع، في وجوه حاشيته، في الجرائد وفي العيون الخائفة في مواجهته. كل الأشياء أضحت مرايا تعكس صورته.

***

راقدًا في فراشه، يتخيل مسار سريان الدواء في جسده، فيبدأ عالمه في الاهتزاز والتأرجح، تواجهه شاشة تليفزيون صورتها بالغة التشوش، وينبعث منها وشيش مزعج، تعيده إلى انقطاع البث التليفزيوني يوم

الاغتيال، لطالما أعاد مشاهدة مشهد القتل. قبل انقطاع البث، رأت الملايين القائد غارقًا في دمه، ويده اليائسة تحاول التشبث بقشة الحياة دونما طائل، ومع هذا حبس الجميع أنفاسهم غير قادرين على تصديق أن الموت بإمكانه قطفه كغيره من الفانين.

خيم صمت ثقيل منذر بالأسوأ. خلت الطرقات، وهجر الناس المقاهي في غضون دقائق. كانت العربات تكاد تطير في الشوارع. يتسابق ركابها من أجل العودة لبيوتهم، وإغلاق أبوابها عليهم.

شُدِدَت الحراسة على المنشآت والمؤسسات الحكومية. ضباط قوات خاصة بملابس سوداء أشهروا الكلاشينكوفات في كل مكان، قنَّاصة تمركزوا في أماكن مختارة بعناية، احتلت المدرعات الميادين ومداخل المدن الكبرى.

ثم بدأت التفجيرات. بعد هدوء مميت دام ليومين، في اليوم الثالث بعد الاغتيال، نُفِذت العملية الأولى. عربة مفخخة انفجرت في ميدان رئيسي بالعاصمة. عشرات القتلى وأضعافهم من المصابين. لم يكن يمر يوم دون تفجير في مكان ما. هوجمت أقسام الشرطة ومديريات الأمن، حُرِقَت مقار حكومية، وكان لا بد من مواجهات مع المتمردين في جنوب البلاد.

كان الرفاق على أعصابهم، خائفين من أن تخرج الأمور عن السيطرة، لكن رباطة جأشه كانت معدية. من تعاملوا معه عن قرب، في تلك المرحلة، كانوا شبه موقنين من أنه ينتشي أكثر كلما ازدادت الفوضى، كأنه بصدد لعبة يتضاعف إغراؤها كلما تعقدت. كان يعد المسرح لإطلالته الأولى من موقعه الجديد: موقع المُنقِذ.

يدفس وجهه في الوسادة، فيرى نفسه يلقي خطبة فوق أنقاض مديرية أمن سُوِّيَت بالأرض في انفجار أخير، يتحدث عن فرض قانون الطوارئ،

ويقسم أن يثأر ممن اغتالوا القائد، وهددوا استقرار البلد وأمنه. يبصر معتقلات امتلأت بالمساجين، ومتمردين أُعدموا رميًا بالرصاص في الميادين العامة، وأُجبِر أهاليهم على دفع ثمن الذخيرة التي قتلت أبناءهم.

يستدعي تنقله بين المدارس ورياض الأطفال كي يتأكد بنفسه من أن التدريب على الرماية صار مادة دراسية، يُشترَط النجاح فيها بتفوق من أجل التخرج، لتجهيز أجيال من القناصة ومحترفي الرماية. أجيال مهنتها المراقبة والانتظار استعدادًا للقنص، ويرى أفرادها العالم عبر مناظير بنادقهم، ثمة وسيط يلوِّن رؤيتهم لما حولهم ويرسم ظلالها.

يستعيد خُطبًا أسبوعية حرص على التطرق فيها لكافة الشؤون الحياتية للناس. كان يحلو له حكي جوانب من المعارك التي خاضها، حواديت وطُرف عن أيام حصار فرقته في حرب بعيدة، أو تيهه في الصحراء بعد نجاته وحده ذات مهمة خطرة. تفاصيل يمررها بين ثنايا كلامه فيبدو كمن يحكي لأصدقاء قدامى عمّا حدث في غيابه عنهم، لكن كان لها مفعول السحر ضد معارضيه. كان كأنما يقول: «من هؤلاء؟ أين كانوا وقت كنا نقامر بحياتنا من أجل البلاد؟ في الخنادق غرقنا في الظلام بلا همسة قد تدل الأعداء علينا، زحفنا في الصحراء، ودفنّا أشلاء رفاقنا. والآن يأتي هؤلاء الخونة والمأجورون كي يرطنوا بكلمات لا يفقهون معناها. لو أُتيحت لهم نصف فرصة لتحولوا إلى غوغاء صارخين ومثيري شغب ينشرون الفوضى والخراب».

وقتذاك لم يخطر بباله أن «الخونة والمأجورين» لن يكون لهم علاقة بنهايته. وأن نارًا، اشتعلت قبل سنوات، وأتت على القائد، ستواصل التهام آخرين.

***

في ساعات الفراغ الممتدة، كان يستغل خلو جسده من المادة المهدئة في محاولة تخيل ما يحدث بالخارج. هل استتب الأمر لرفاقه، رفاقه السابقين وأعدائه الحاليين بالأحرى؟ أم أن المحرقة مستمرة، والبيت أعلى التل في انتظار نزيل جديد قريبًا؟

لكن، لا. من الغباء لم شمل أكثر من ثعلب محنك في مكان واحد حتى وإن كانت ثعالب فقدت سطوتها. مؤكد أن هناك بيوتًا أخرى شبيهة، أو سجونًا سرية لأصحاب المقام الرفيع.

ذات ظهيرة حارة حدث أمر ظنه يجيب على تساؤلاته. وصلت عربة تحمل طاقم تصوير تليفزيوني: مخرجًا بلحية مشعثة وشعر طويل ونظارة شمسية تأكل نصف وجهه، ومصورًا عصبيًا بوجه شحيح التعبيرات.

الاثنان يتصرفان بحرفية عالية ويبدوان كعميلين سريين أكثر من كونهما مخرجًا ومصورًا. المخرج تحديدًا يتعامل بسلطة واضحة وفي عينيه نظرة هازئة على الدوام.

أدخل الحراس «ضيفهم» إلى غرفة بها دولاب مليء بملابس فاخرة، حددوا له أي حلة سيلبس، واختاروا أدق الإكسسوارات المصاحبة من منديل حريري وربطة عنق باريسية. كانوا قد حلقوا له ذقنه وهذبوا شعر رأسه في الصباح دون إخباره بالسبب. اجتهد الماكيير، الذي ظهر فجأة بعد أن ظل بعربة التليفزيون لآخر لحظة، في إخفاء آثار عدم النوم والهالات السوداء تحت عينيّ «المُنقِذ». يكاد الأخير يقسم أنه لمح ارتعاشة يد الماكيير وهي تقترب من وجهه، كان الرجل يتهرب من النظر في عينيه وأصابعه تتحرك بتردد وارتباك على البشرة الداكنة.

أعطاه قائد الحرس خطبة جاهزة، وطلب منه قراءتها، والتدرب على إلقائها. سنواته السابقة جهزته للمهمة جيدًا. يعرف متى يعلو صوته محتدًا مهددًا، ومتى يرتجل تعليقًا شارحًا لفقرته السابقة بعامية حاذقة.

دقق المخرج كثيرًا في الأجزاء المرتجلة، أو شبه المرتجلة لأنها مكتوبة أيضًا، إذ ليس مسموحًا له بالخروج عن النص. عليه فقط إقناع مشاهديه بأنه يرتجل، بأنه ذاته القديمة: «المُنقِذ» الذي عرفوه وخافوا منه وكان لسنوات المتحكم في مصائرهم، ومحدد درجة الظلمة في كوابيسهم.

أصبح حضور طاقم التصوير التليفزيوني مألوفًا. مرة شهريًا. يصورون خلالها أربع خُطب، وأحيانًا يجيئون في غير موعدهم، متعجلين مرتبكين، لتسجيل كلمة سريعة. فيفهم أن حدثًا طارئًا قد استجد. يجهد عقله في محاولة استنتاج ماهية هذا الحدث دون طائل، فحوى الخُطب يخبره بأن ثمة اضطرابًا هائلًا بالخارج، وأن رفاقه القدامى ما زالوا في حاجة إليه، أو للدقة ما زالوا في حاجة لخيال المآتة المتوعد في الخُطب التليفزيونية المُسجلة. يتساءل متى سيتحول إلى «كارت» محروق في أعينهم؟

مع الوقت، باتت النظرة الهازئة في عين المخرج تضايقه، لا يفهم مبررها، ولا يعرف إن كانت موجهة نحوه، أم قناعًا لا غنى للرجل عنه، لكنها كثفت شعوره بمأساوية وضعه، بأنه صار ممثلًا هزليًا أو دمية بلا قدرة على اختيار كلماتها الخاصة، أو تحديد ما يدخل جسدها من طعام أو دواء.

تأكد هذا الشعور حين فقدت نصوص الخُطب الاتساق، وأضحت «إسكتشات» يخاصمها المنطق. بدأ يتلجلج غير واثق مما يقوله، ولا بأي نبرة عليه النطق به. توقف مرات، غير عابئ بغضب المخرج ولا باحتجاجاته، إلّا أن ظهور الحراس، ببنادقهم ونظراتهم المهددة، كان يدفعه لاستكمال التصوير.

تغادر عربة التليفزيون، فيلجأ إلى غرفته. يحاول تناسي كل ما يخص الخُطب المتناقضة، فالتفكير فيها لن يقوده إلى شيء. لا علامات ترشده

إلى ما يجري في العالم خارج هذا البيت، ولا إلى سبب احتجازه فيه، بات حتى غير متأكد من هوية من اختاروا له هذه النهاية.

لا دليل على ماضيه، سوى ارتعاشة يد الماكيير، وهي تقترب من وجهه. ولا ضمانة لحاضره، سوى بانغماسه في آداء دور لا يدرك أبعاده. حرص لاحقًا على نيل رضا المخرج، أو على الأقل تجنُّب غضبه. تجاهل نظرة السخرية في عينيه، ولاحظ أن الرجل كأنما يمنع نفسه بالكاد من التفوُّه بما قد يزيح بعضًا من الضباب العالق في الأجواء.

«يللا يا بطل!». عبارة يكررها المخرج، لحثه على التجويد. النبرة المغلفة بالهزل، كانت تبعد مفردة «بطل» عن ميادين القتال وساحات المعارك، وتلقي بها في ملاعب الطفولة، فلا يسع «المُنقِذ» إلّا رؤية نفسه طفلًا مترب الوجه، يلعب كرة القدم مع أصدقاء طفولته، وينتظر هتافات التشجيع. وجهه المترب القديم ذاك، يكون آخر ما يراه قبل نومه كل ليلة، مصحوبًا بعينين يغمرهما الاستهزاء، ويد مدماة تستميت للتشبث بأي شيء.

وكما أشرق طاقم التليفزيون فجأة في أفق حياته، غَرَب عنها مجددًا دون تحذير. لم يخبره أحد أن تلك كانت آخر مهامهم. في موعدهم الشهري المفترض، استيقظ من نومه مبكرًا، جهز نفسه نفسيًا لجمود المصور، وتكاسل المخرج الهازئ، وتوتر الماكيير وهو يتعامل مع بشرته. مرت الساعات، وهو في غرفته. لا صوت ينبئ بوصول عربة التليفزيون، لا أوامر له بارتداء بزة مختارة بعناية، ولا أوراق مطلوب منه التدرب على إلقائها. فقط أحضر له أحد الحرس، في الصباح، رغيفين وبيضة وشرائح جبن رومي وثمرة طماطم، ثم تشاغل الجميع عنه، بجلستهم المعتادة على كليم صوفي في الخيمة بالحديقة، يلعبون الورق ويدخنون السجائر بشراهة.

وقت الغداء، راقدًا في فراشه، بدأ يتأقلم مع فكرة أنه سيقضي اليوم وحده. التهم طبق الفاصولياء الغارقة في الدهون، دون أن يعي طبيعة ما يأكله بالضبط، وأجهز بعدها على طبق الأرز وقطعة اللحم، ثم عاود الرقاد. نام وأفاق مع حلول المساء. لم يسأل قط عن سبب غياب المخرج وفريقه، لأنه لو سأل لما اهتم أحد بالرد عليه. لو حدث وخاطب أحد أفراد الحراسة لا ينظر إليه ولا يجيبه، يتجاوزه كأنه هواء. لا يوجهون إليه أي كلام، يتكلمون عنه بضمير الغائب، ويكررون الإشارة إليه بـ«المُنقِذ» كأن اللقب يسليهم. لم يتخيل من قبل أنه سيفتقد المخرج. رغم معاملته له كطفل بليد، ونظرته إليه كمن يراقب فأرًا في مصيدة، كان الوحيد الذي يوجه له كلمات مباشرة، حتى لو كانت أوامر وتعليمات.

***

في اليوم التالي، تلقى تعليمات مخالفة. أو للدقة تلقاها حراسه، ولم يكلفوا أنفسهم عناء إخباره بها. اقتادوه عبر الحديقة بأشجارها المتشابكة، ساروا به لمسافة غير عابئين بالأغصان وهي تخدش وجوههم وأذرعهم أو تعرقل سرعتهم. كانوا يسحبونه كما لو كان جوالًا عليهم جره خلفهم، وكي يقلل من مهانة قبضة أيديهم عليه، حاول تسريع حركته، فأي مقاومة ستكرس حالته كسجين، كحيوان يقاد إلى المسلخ.

امتدت الأشجار لمساحة لم يكن يتخيلها، انشغل بالنظر للعشب المبلل قليلًا. من بين المسافات الضيقة بين قمم الأشجار، انسكب ضوء النهار داخل الغابة المصغرة مُشَتَتًا ومُشَرَّبًا بغلالة قاتمة من ظلال الأوراق والأغصان.

وصلوا أخيرًا إلى نهاية الأشجار، مروا من باب، يتوسط سورًا بالغ الارتفاع، وأغلقوه خلفهم، خرجوا إلى ضوء النهار في ساحة واسعة

مسوَّرة، أعلى السور أربعة أبراج مراقبة في كل منها قناص في وضع الاستعداد.

التقطت عيناه الخبيرتان أدق تفاصيل المكان: وضعية كل قناص من الأربعة، زاوية التصويب المثالية، ومسحة الترقب المخيمة على الساحة كغيمة منذرة بمطر غزير.

شعر بالأسف لأنه غير قادر على التقاط تعبيرات وجوه القناصة من هذه المسافة. فوهات البنادق موجهة إلى جسده والحراس ابتعدوا عنه وغابوا مرة أخرى خلف الباب المؤدي إلى الغابة المصغرة.

في ركن من أركان الساحة المستطيلة، وقف بعادية شخص ينتظر في محطة أتوبيس. ثمة ترقب وملل ونفاد صبر، لكن لا وجود بداخله للخوف أو الرجاء. تمنى ألّا تخونه يده، عند النهاية، بارتعاش متوسل ويائس، في محاولتها للقبض على بقايا حياة هاربة.

مرت الدقائق ثقيلة. انشغل بتخمين من أي اتجاه ستأتيه الطلقة الأولى، وتساءل - في سره - إن كانت زوجته ستُجبَر على دفع ثمن ذخيرة البنادق الأربع. في طلعة أولى أمطر القناصة الساحة بطلقات متتالية. باغته الصوت الأشبه بقذائف صاروخية. لا معنى للعب بأعصابه على هذا النحو، إلّا إذا كان الحدث بكامله يُصوَّر لإمتاع آخرين، لم يعد واثقًا أنهم رفاقه السابقون. استمات للتماسك في إطلالته الأخيرة على العالم. أغمض عينيه، فغمره مشهد قديم، كأنه من حياة أخرى، ويخص شخصًا غيره. في عشرينياته، وخلال إجازة من وحدته العسكرية، يجلس في مقهى يطل على النهر. السماء غائمة، الجو بارد ومياه النهر رمادية. على الشاطئ الآخر «دهبيات» بألوان باهتة تنكسر المياه على هيكلها من أسفل. من خلفها وفي المسافات بينها أشجار نخيل وفيكس وبضع شجرات موز مثقلة بثمارها، ومرسى مطلي بأخضر داكن. قارب

بإطار أحمر حائل، مرفوع فوق رصيف نهري، وخلفه النخلات وأشجار الموز، فيبدو كتفصيلة ديكور أكثر منه قاربًا في طور التجديد والإصلاح.

الكوبري الحديدي الواصل بين ضفتي النهر يعبره قطار سريع، صوته كطلقة مدوية، وسارينة إسعاف ترد عليه، فتشوِّش عليها أبواق سيارات وضجيج مكتوم لمحركات قوارب تمر من وقت لآخر. ومن الطاولات المجاورة يأتي قرع كؤوس وأدوات مائدة وثرثرات متداخلة. على الضفة التي يقع فيها المقهى، كان ثمة غراب يُحلِّق فوق مراكب راسية يهدهدها الماء على مهل.

يعرف أن الرصاصة التي ستقتله لن يسمع صوتها، لكنه لم يتخيل قط أن يكون صوت قرع كؤوس زجاجية وأدوات مائدة وثرثرات بلا معنى، هو ما سيحتل ذهنه، بينما ينتظر مصيره ملتصقًا بالحائط، قبل أن يتهاوى مرتميًا على الأرض.

لم ينتبه إلى الطيور الفزعة، وهي تهجر أعشاشها على الأشجار القريبة، مكونة سربًا مرتبكًا هائجًا، لا يعرف إلى أين يفر، ولا مِمَّ بالضبط! لكن بينما تبتلعه الظلمة تراءى له جناحا غراب يرفرفان فوق مراكب راسية على ضفة نهر.

آميديا.. أو سماء بلون الفيروز

على طريق شبه مهجور بأريزونا، انهارت آميديا أمام شجيرات دفلى تزنر ممرًا جانبيًا يقود إلى بيت محاط ببستان شاسع.

كانت قد طلبت من زوجها إيقاف السيارة، وسبقته ركضًا نحو الممر المؤَّطر بالدفلى من جهتيه. حين لحق بها كانت واقفة بلا حراك ونظرتها مسمرة بزهور الدفلى. مدت يدها تتحسس بتلاتها الناعمة، وهي لا تكاد ترى سوى لونها القرنفلي المنعش، غير أنه لم يكن منعشًا لآميديا الملتصقة بالشجيرات كأنما ترغب في الاتحاد بها، على العكس، داخت وضاق صدرها حد الاختناق. خيل إليها أن رئتيها على وشك الانفجار، وارتمت على الأرض - في وضع جنيني - تنتحب بجوار الشجرة، دون أن يفهم زوجها ما سَبَّب لها كل هذا الحزن.

حملها إلى السيارة، هدهدها كطفلة ومسح دموعها، وكعادتها رفضت أن تبوح بسبب انهيارها. كانت ما إن تفيق من إحدى نوبات هلعها، حتى تتصرف كأنها لم تحدث، تبتلعها وتعاود الانشغال بتفاصيل حياتها اليومية والانغماس في لحظتها الحاضرة.

بالنسبة لها، الماضي لم يحدث، والمستقبل عالم موازٍ لا حماسة لترقبه، أما الحاضر فعالمها الوحيد، ملجأها وملاذها الماحي لذكريات

تسكنها، وتطفو على سطح واقعها فقط حين تبصر محفزًا يردها إلى كل ما تهرب منه.

هكذا سيضيف زوجها الدفلى إلى قائمة طويلة من مسببات الانهيار، دون أن يفهم لماذا لزهرة رقيقة - وإن كانت سامة - أو للون بعينه أو لقطعة أثاث هذا التأثير المهول على زوجته المتأرجحة دومًا بين كونها بسيطة وتلقائية أو لوغاريتمًا يعجز عن فهمه.

في السنوات التالية، ستبكي آميديا كلما رأت الدفلى. الشجرة المسممة كانت حارسة لها يوم اختبأت داخل خميلة من شجيراتها، حدَّقت في أزهارها، ركزت فيها كأنها العالم بكامله، ثم انكمشت على نفسها، فوق التراب، في وضع جنيني تترقب وقع خطوات محتملة. لم يخبرها أحد قبل ذاك اليوم أن الدفلى، بأوراقها وزهورها، شديدة السمية. لو علمت بهذا، لربما التهمت ما تقدر عليه منها، بعد أن هدها التعب وناء جسدها بجروحه وتقيُّحاته.

أيام منْ السير المتواصل والمبيت في العراء كانت قد أوصلتها إلى حافة الحمى: جسدها ارتفعت حرارته واستسلم للارتعاش، وعقلها لم يعد قادرًا على العمل. كانت الأشياء من حولها تتلاشى، والضباب يتكاثف أمام عينيها بلون مستعار من زهور الدفلى.

في تلك اللحظة كانت تحلم بسماء فيروزية، وماعز تمرح فوق التلال والمرتفعات، وتيوس جبلية تتقافز بنشاط فائق. في فضاء غيبوبتها المؤقتة كان ثمة حقول حنطة وبساتين خوخ مزهرة وأشجار دُلّب ودردار. جمَّد لا وعيها اللحظة السابقة على المأساة وتوقف عندها.

كانت تلعب خارج بيتهم، المشيَّد بصخور وأحجار مقتلعة من الجبل القريب، والراقد في سفحه، حين تعالى الصراخ في ساحة القرية، تعثرت في دجاجات أمها وهي تركض إلى الداخل، اختبأت في الغرفة

التي تتقاسمها مع شقيقاتها الأكبر منها، في حين خرج كل من في البيت لاستبيان سبب الهلع والصراخ السائدين في الخارج.

عندما تأخروا، تسللت إلى السطح، وراحت تراقب خلسة الهرج السائد. مسلحون متجهمون جمعوا الأسلحة من بيوت القرية، واقتادوا الرجال إلى الساحة. أوقفوهم في صف طويل وأطلقوا النار، ثم أشعلوا النيران في الجثث بعد أن فتشوا الملابس واستولوا على ما فيها من نقود.

صراخ النساء، وهن يركضن إلى البيوت لإغلاقها عليهن هن وأطفالهن، كان مرعبًا. بدا لأذنيها أشبه بعواء ذئاب جريحة، رغم سنواتها القليلة كانت تميز العواء جيدًا؛ إذ لطالما حرمها من النوم حين كان يتعالى من شعاب الجبل.

استحال فضاء القرية دخانًا كثيفًا، وطغت رائحة شواء اللحم البشري على ما عداها. عينا آميديا اللتان رأتا كل شيء، من مخبئها فوق السطح، لم تعودا راغبتين في الرؤية، زهدتا فيها، وتمنّتا الغرق في الظلام.

على التلال القريبة، كانت التيوس الجبلية والماعز البري تواصل لعبها وتقافزها، وحلق كروان مغردًا بصوت متناغم، ومتطاولًا على الدخان الفحمي المتصاعد.

كان مايو قد أعلن عن حضوره بطقس ربيعي معتدل، وكانت بساتين الخوخ والكمثرى والبرقوق مثقلة بثمار اعتادت الطيور أن تنقرها، ومن وقت لآخر قد ينجح طائر ما في التقاط ثمرة منها بمخالبه والطيران بها قبل الهبوط في بقعة هادئة ليقتات على جزء منها بنقرات سريعة، يشبع بعدها ويعاود التحليق.

في ذاك اليوم المحفور في ذاكرة آميديا بأدق تفاصيله، لم تكن هناك بقع هادئة في الجوار، وستندهش الصغيرة بعد سنوات كلما استعادت أحداثه، وهي تسأل نفسها: كيف تمكنت الطيور من الطيران مخترقة

الدخان الكثيف؟ غربان عديدة ارتفع نعيبها، وحلقت النسور والعقبان، في مسارات دائرية، كأن رائحة الموت استدعتها.

بين برهة وأخرى، كان يتعالى صراخ سرعان ما يُكتَم في أوله أو منتصفه. على مقربة من آميديا، الراقدة على بطنها لا تزال وعيناها ملتصقتان بمشهد الساحة المغيبة بالدخان، حط هدهد يحمل بمخالبه خوخة ناضجة تسيل العصارة منها، تركها فوق السطح ونفش تاجه، ثم حلّق مبتعدًا من جديد.

رغم رعبها وارتعاشها، التهمت الصغيرة الخوخة وهي ممتنة للطائر الملكي. بعدها بقليل، سمعت صراخ أمها وشقيقاتها بالأسفل. اقتحم المسلحون عليهن البيت. صلت آميديا من أجل نجاتهن قبل أن تفقد الوعي.

كان الصمت تامًا حين أفاقت من تلقاء نفسها. كانت الغيوم بالغة الدكنة والهواء ثقيلًا كريه الرائحة. شعرت بحرارة لاسعة وانتبهت إلى نيران تلتهم البيت من الداخل، صوت طقطقتها تصاعد فجأة مشوِّشًا على الصمت. جرت إلى الجانب الآخر من السطح، حيث شجرة التوت الملاصقة للبيت، تشبثت بالغصن القريب وقفزت نحو الشجرة. هبطتها، عاكسة بذلك طقسها اليومي المحبب، حيث اعتادت في ما مضى تسلق الشجرة للصعود عبرها إلى السطح متجاهلة تحذيرات أمها من خطورة هذا. بشكل لا واعٍ ربطت آميديا في ذهنها بين الكوارث والتخلي عن الطقوس اليومية. وحتى آخر يوم في حياتها، عاشت عبدة لعاداتها اليومية، لا تجرؤ على الإخلال بها أو تغييرها.

قد يتجسد الرعب في التخلي القسري عن طقس يومي، أو في هستيريا دجاج يجري هربًا من خطر يجهل أبعاده. وقد يُختصر الجمال في هدهد، يترك ثمرة شهية لصغيرة مرتعدة. ستظل ممتنة لهذا الطائر

النبيل طوال حياتها، وستعتبره - دومًا - من أحب الكائنات إلى قلبها. رغم منافاة هذا للعقل والمنطق، عاشت مؤمنة بأن الهدهد ترك لها الخوخة عن قصد كإيماءة أخوة ودعم.

***

خدشت التوتة ساقيها في طريق هبوطها. مستندة إلى جذع الشجرة المعمرة، أبصرت ألسنة اللهب تتصاعد من نوافذ البيت. كانت النيران قد أتت على الباب الخشبي بالكامل، كاشفةً عن الخراب الذي سببته بالداخل. دارت آميديا حول المبنى كالمجنونة، بحثًا عن ثغرة تدخل منها. حتى تلك اللحظة، لم تكن مدركة لما حدث بالضبط. من نافذة خلفية مواربة، لمحت جثث أمها وشقيقاتها راقدة على الأرض في بركة من الدم. كانت النيران قد طالت جثة شقيقتها الكبرى، وخلال دقائق تحولت الشقيقة - المغرمة بالضحك والغناء - إلى قطعة من جحيم.

لا تعرف آميديا كيف استطاعت الوقوف وعيناها مثبتتان على النار وهي تتغذى على جثث أحبتها. كانت كالمنومة مغناطيسيًا، ظلت محدقة في النار المهتزة المتراقصة حتى لم يعد هناك غيرها. ربما يكون شعور الانخطاف هذا هو ما منعها من تنفيذ فكرتها المجنونة بالقفز عبر النافذة للالتحاق بأهلها في الداخل.

كان السعال الشديد وبوادر الاختناق هما ما أخرجاها من انخطافها. الدخان الكثيف ملأ صدرها، بحيث لم تعد قادرة على التنفس. أخذ جسدها الصغير يرتج مع كل سعلة ودمعت عيناها، فلم تدر بنفسها إلا وهي تركض هاربة من قرية تحولت إلى مقبرة لسكانها.

كانت وحيدة في عالم ميت، ترتمي على الأرض كلما غلبها الإنهاك، قبل أن تعاود السير. تورمت قدماها، واحمرّت عيناها والتهبتا، وغرق وجهها في الدموع والمخاط. تنظر إلى السماء، فتجدها صفحة زرقاء

مُطرّزة بالغيوم، وإلى الحقول اللانهائية على طول الطريق، فيدهشها أن الأشجار والبساتين لم يباغتها الحريق هي الأخرى.

خطر لها أن تعود إلى قريتها لترى إن كان ثمة ناجون آخرون، لكن قلبها انقبض لمجرد التفكير في هذا الاحتمال، من يضمن لها أن القتلة لن يعودوا لسبب أو لآخر! ثم إنها كانت قد قطعت مسافة كبيرة في طريق الهرب.

في الليل، انكمشت على نفسها على رأس بستان برقوق بعد أن ملأت معدتها بثماره. توارت بين بضع شجيرات، وأغمضت عينيها مستسلمة لنوم قلِق أيقظها منه نباح يتعالى رويدًا، فاتجهت إلى شجرة قريبة وتسلقتها. قضت ليلتها فوقها تقاوم النعاس والسقوط وتبتهل كي لا تنتبه الكلاب الضالة إليها.

مع انبلاج الفجر واصلت سيرها، لم تقابل قرية واحدة على امتداد الطريق، فقط حقول وبساتين لا نهائية. أكلت مما تصادفه من ثمار، وشربت من مياه الجداول، ومع هذا رافقها جوع لا سبيل لإشباعه، وعطش ترك فمها جافًا وحلقها ملتهبًا.

التقت بهاربين آخرين، سارت في ركابهم. في عيونهم أبصرت هلعها ذاته. جماع متنافر من سريان وآشوريين وكلدان وأرمن ويونانيين. من انفتح باب الجحيم في وجوههم. لم يكلم أحدهم الآخر. لم ينتبهوا إلى أنها تخلفت عنهم في منتصف الطريق. لم تعد قادرة على مواصلة السير. رقدت لمدة لا تعلم مداها، ثم قامت متحاملة على نفسها على أمل أن تلتقي بناجين آخرين. من بعيد لمحت خميلة من شجيرات الدفلى، بوصولها إليها، كانت قد فقدت كل قدرة على المقاومة. كانت جروحها متقرحة، ورؤيتها زائغة، وكل شيء حولها لا يكف عن اللف والاهتزاز. حدقت في الزهور القرنفلية حتى استحالت سوداء. غرقت في الظلام

واللاشيء، وحين أفاقت وجدت امرأة جالسة بجوارها، تمسح وجهها بقماشة مبللة وترش أمام أنفها عطرًا رائحته نفاذة، ذكّر آميديا بالعطور التي يعطرون بها الموتى بعد تغسيلهم.

الرائحة نفسها التي عبقت غرفة جدها لأمها بعد خروج جثمانه منها إلى الكنيسة. لأيام ظلت الرائحة عالقة في المكان حتى باتت في ذهن الصغيرة رائحة الموت وأنفاسه. لكنها لم تكن ميتة في ذاك المكان المحاط بالدفلى من كل جانب، كأنه مخبأ جهزه أحدهم لها خصيصًا. كانت منهكة متألمة، تنز الدماء من الجروح المتقرحة في ساقيها وذراعيها.

نقلتها المرأة، التي لم تكن سوى راهبة، إلى الدير القريب. طببت جروحها، واهتمت بها حتى تعافت. فهمت آميديا من دردشة الراهبات المسائية أن ما جرى في قريتها، تكرر في قرى أخرى عديدة. سمعت شذرات من حكايات مرعبة عن قتلى لم يجدوا من يدفنهم، وطيور جارحة أُتخمت من اللحم البشري، وهاربين قضوا نحبهم عطشًا وجوعًا على طريق الفرار، وآخرين اصطادتهم آلات القتل الهائجة في الطريق إلى المدن المجاورة.

غير أن أكثر ما أرعب الصغيرة هو ما سمعته عن الغرقى المتبوعين بعواماتهم. من أُوهِموا بالعفو عنهم، وطُلِب منهم النزوح إلى الجنوب عبر النهر. غادروا تاركين خلفهم كل ممتلكاتهم، وتكدسوا في عوامات خشبية ممتنين؛ لأنهم نجوا بأرواحهم، حتى وإن اضطروا للتخلي عن ديارهم وأرضهم. لم يستمر ارتياحهم طويلًا، فسرعان ما اكتشفوا أن فرق الموت تنتظرهم على الشاطئ، في أحد منحنيات النهر. لم يتمكنوا من الهرب. خلال أقل من ساعة قضى المسلحون عليهم بالخناجر والسيوف، وألقوا الجثث في النهر، ليحملها التيار إلى الجنوب، في إثرها عوامات خشبية فارغة.

لم تنتبه الراهبات إلى أن الصغيرة سمعت حكاياتهن، وتخيلن أن كوابيسها وصراخها كل ليلة، ناتجان فقط عن مأساتها الشخصية، لكن نومها كان منغصًا، بنهر تلونت مياهه بالأحمر، وبجثث تطفو على السطح ووجوهها للأسفل. في مرات ترى نصالًا تنعكس عليها أشعة الشمس تقترب من رقاب لنحرها، وسماءً صافية الزرقة - تخترقها طيور بيضاء - غير آبهة بما يحدث تحتها.

في تلك الفترة، لم تحلم قط بما جرى لأهلها، كما لم تكن النار قد سكنت مخيلتها ولياليها بعد. كانت في حالة من الإنكار، محا ذهنها مؤقتًا كل ما يخص مأساتها الخاصة، وانشغل بالغرقى الطافين في رحلتهم لجنوب لم تسبق لهم رؤيته أو التفكير فيه.

في الدير، تلقت آميديا أول دروسها في اللغة الإنجليزية على يد منقذتها. سألت المرأةَ عن معنى زهرة الدفلى بالإنجليزية، وحين أخبرتها به راحت تكرره حتى ظنت الراهبة أنها لن تتوقف عن تكراره أبدًا. «أوليآندر»! كانت تنطق الاسم بكل حواسها كأنها تتذوقه وتلمسه وتشمه وتسمعه وتراه في آن.

سألت أيضًا عن معنى هدهد وخوخ وكروان ودردار ودلب وبساتين. كانت تكوِّن قاموسًا من المفردات الصديقة كأنما رغبت في أن تُشيِّد به حياة خالية من الألم ولا مكان فيها لمفردات مثل: نار، حريق، دخان، قتل، خناجر، غرق أو اختناق.

أبدت نهمًا لتعلم الإنجليزية حيَّر مدرستها، خاصةً أنها لم تتحمس ولو قليلًا لدروس الحساب أو العلوم أو الجغرافيا. لم تفهم المرأة، أو حتى آميديا نفسها، أن الصغيرة كانت تلتجئ، بلا وعي، إلى لغة جديدة، غريبة عن كل ما عرفته، تولد فيها من جديد بلا ذاكرة قديمة. غير أنها حملت ذكرياتها وأشباحها معها إلى ملجأها اللغوي هذا.

فشلت محاولات الراهبات في دفعها إلى البوح بما مرّت به. كلما سألنها، لم تنطق، وامتنعت عن الأكل أو الشرب. لاحظن أنها ترتعب من النار، وتحدق في خزانات الملابس بعينين مذعورتين، وترتعش ما إن تسمع نعيب غربان، إلّا أن ملاحظاتهن تلك لم تقدهن إلى شيء.

كانت تنصت باهتمام حين تقرأ إحدى الراهبات من سِفر الخروج، وبخلاف هذا لم تُبد اهتمامًا بأي شيء ذي طابع ديني. اعتادت الجلوس في حديقة الدير بالساعات محدقة في الأشجار والزهور المختلفة، متحاشية الاقتراب من جبلاية الصبّار حيث صبارات تاج الشوك بزهورها الحمراء المائلة للبرتقالي، وحيث زهور الليليوم المجاورة بلونها البرتقالي الزاهي.

***

ست سنوات قضتها آميديا في الدير، كانت كافية لتعلم الإنجليزية، وإن ظلت تنطقها بلكنة ثقيلة خشنة، لكن هذه السنوات، لم تكف لحثها على الخروج من قوقعتها، والبوح بتفاصيل قصتها. مع الوقت باتت متلهِّفة للخروج إلى العالم خارج الدير. كان هذا محيرًا للآخرين، بالنظر إلى أن عالمها داخل الدير اتسم بالمحدودية، إذ انحصر في غرفتها وأماكن معينة في الحديقة، لكن مع مرور الوقت واستمرار الإلحاح، بات التفكير في توفير حياة آمنة لها بالخارج أمرًا لا مفر منه.

هكذا وجدت نفسها في ضيافة أسرة أمريكية تعيش في بيروت، مدينة لم تكن سمعت بها من قبل. وهناك تعرفت على نيكوس كوستاكي وأحبته وهاجرت معه إلى أميركا، حيث صارت آمي كوستاكي: الزوجة الشابة والمرأة متقلبة المزاج.

خطاب مكتوب على عجل، تخبرهم فيه بقرارها المفاجئ بالرحيل، كان كل ما تركته لمضيفيها الذين أقامت معهم لبضع سنوات، وعاملوها

كفرد منهم. لم تكن راغبة في الشرح أو التبرير، ولم تُرِد أن يطالبوها بالتروي أو يحاولوا إثناءها عن الذهاب مع غريب لا يعرفون عنه شيئًا. طمحت إلى القطيعة مع كل ما يُذكِّرها بماضيها، ولم يؤنبها ضميرها ولو للحظات على الفرار على هذا النحو. تمنت لو كانت قادرة على محو كل آثار أقدامها السابقة، لو تفقد ذاكرتها وتنسى كل ما سبق وعرفته وعايشته.

غير أنها لم تنسَ، بل على العكس، في سنواتها الأخيرة، ارتدت للّغة الأشورية. راحت تجتر بها مونولوجات طويلة، لا يفهمها أبناؤها ولا أحفادها، تحكي خلالها كل ما مرت به أثناء فترة الأهوال تلك. خفتت ذكريات حياتها القريبة واندغمت تفاصيل معيشتها في المهجر بحيث صارت كتلة لا تتضح لها معالمها، وظلت أحداث سنواتها الأولى مُشعة الوضوح، خاصة يوم اختفت السماء فيه خلف طبقات من الدخان وغُطِّي كل شيء بشخبطات فحمية مميتة.

إذا كانت مونولوجاتها المستغلقة على أفهامهم توترهم، إذ تُوحي بجنون محتمل، فغناؤها كان يطربهم، رغم إيقاعاته الحزينة ونبرات صوتها المشحونة بالشجن. حاولوا جرّها للعودة إلى الكلام بالإنجليزية، إلّا أنها لم تلجأ للغة منفاها، في تلك الفترة، سوى مضطرة وللتعبير عن حاجاتها الأساسية فقط، وما عدا هذا كانت تخنق كلماتها الإنجليزية وتدفنها في أعماقها، مفضلةً لغة قديمة لم تكن حتى متأكدة إن كانت تنطقها بطريقة صحيحة أم محرفة بحيث تناسب معجمًا محدودًا لطفلة في العاشرة اعتادت أن تزركش جملها بمفردات تركية عديدة.

في يومها الأخير، كانت راقدة على فراشها غير قادرة على النطق، ومحاطة بأبنائها وأحفادها. أجالت النظر في وجوههم، فلم ترَ بينهم من يشبهها، كأن جيناتها الوراثية كانت غير قابلة للانتقال والحلول في آخرين، أو كأنها هي بخلت بجيناتها ولم ترد لها أن تغادر حيز جسدها. من بين الجميع، توقفت عيناها عند روز زوجة حفيدها آدم، وخطر

لها - لأول مرة - أن عينيّ المرأة الشابة تدركان معنى الألم، وأنهما صديقتاها بمعنى ما. لمحت ارتعاشة خفيفة في يديّ روز، وخمنت أن عدم ارتياحها يتعدى وجودها في حضرة عجوز محتضرة. ثم تلاشى كل شيء من ذهن آمي كوستاكي باستثناء سماء بلون الفيروز تخترقها طيور بيضاء تشبه البجع يتبعها هدهد يحمل ثمرة خوخ بين مخالبه. في لحظاتها الأخيرة غمرتها رائحة عطر قديم مزعج عبّق غرفة جدها قبل عقود، وسكنتها مجددًا رائحة شواء لحم بشري، ثم غابت عنها هذه الروائح بدورها، وسمعت ترانيم بلغتها الأم، فأغمضت عينيها على مشهد السماء الفيروزية المزينة بالسحب والطيور.

عالم أزرق

من غير المنصف حصر من اخترنا له اسم فلاديمير في تفصيلة عجوز يذرع جسر تشارلز جيئة وذهابًا في حلم كاميليا، أو رجل مولع بالتسكع في تخيلاتها. هو أولًا لا يرى نفسه كعجوز، بل يشعر بأنه لم يتجاوز الأربعين بعد. وثانيًا، هو صحيح مهووس بالسير الطقوسي ولا يمكنه العيش من دونه، ويهرب دومًا من تخيل احتمالية أن يفقد قدرته على الحركة مع تقدمه أكثر في السن، لكنه لا يفسر حياته ومغزى وجوده من خلال الحركة، بل اللون، وتحديدًا الأزرق بأطيافه ودرجاته. لا يؤمن بالجنَّة، لكنها لو وُجِدت، فمن المستحيل عليه أن يتصورها سوى على شكل فضاء شاسع متدرج الزرقة.

بالنسبة له، الأزرق ليس لونًا، بل درجة أعلى في سلم التطور الكوني.

وهو صغير كان يطلب من والديه كل شيء بلون أزرق، يخبرهما برغبته في برتقالة زرقاء، كوب لبن أزرق، أو شمس زرقاء. ويغضب حين يعجزان عن تحقيق ما يريده ويحاولان إقناعه بأن هناك أشياء بلونه المفضل وأشياء أكثر بألوان أخرى.

اعتاد أن يبكي حالمًا بعالم أزرق.

مع الوقت، بات يستخدم مفردة «أزرق» للإشارة إلى الجودة

والفخامة والرقي. حررها من ارتباطها بالحزن والكآبة. ربما كان عشقه لهذا اللون – وهو عشق لم ينجح هو نفسه في فهم أسبابه ولا دوافعه - هو ما دفعه للرسم. عندما انتبه مدرسوه والمحيطون به إلى أنه موهوب وبدأوا يشجعونه، كان هو مفتونًا بالمساحة التي يتيحها له الرسم للتعامل مع الألوان، بالأخص مع لونه الأثير بكل درجاته.

في لوحاته، أعاد اختراع العالم على مقاس أحلامه. عالم أزرق كما ينبغي له أن يكون. الأزرق بدرجاته هو المسيطر على معظم لوحاته، حتى الألوان الأخرى تظهر في أعماله مشوبة بالزرقة، مختلطة بشكل أو بآخر بظل من ظلال اللون الكامل: هذا ذهبي ممزوج بغلالة زرقاء، وذاك أخضر مزرق، وذلك أحمر بمسحة لا يمكن تجاهلها من الأزرق.

ثم تعدى الأمر هذه النقطة بعد خضوعه لجراحة لإزالة المياه البيضاء. لم تعد عوالمه الفنية وحدها غارقة في الزرقة، بل صارت عيناه تضفيان أطياف الأزرق على كل ما يراه، كأنه يبصر العالم من حوله عبر ستارة زرقاء شفافة أو عدسة تصبغ ما يراه بالأزرق. لا يمكنه الشكوى من هذا، لكنه كان يتساءل أحيانًا: هل وقع فريسة لهلاوس لونية ما؟ طبيب العيون أخبره أنها حالة مؤقتة تُدعَى سيانوبسيا، لكنها دامت أكثر من تقديرات الرجل، واستعصى علاجها عليه. لم يزعج هذا فلاديمير، سخر فقط من مفارقة ألّا يرى رسام الألوان على حقيقتها، وأن تصل لعينيه مختلطة بوهم لوني، ثم توقفت المفارقة عن إدهاشه حين تذكر أن فان جوخ مدين بألق لوحاته لعمى ألوان محتمل كان ينقل له الألوان بدرجات أبهت مما هي عليه في الواقع.

لا يعني هذا أنه يضع نفسه في مصاف فان جوخ، فلو شئنا الدقة، لم يرَ فلاديمير نفسه قط كفنان تشكيلي، هو فقط عاشق للأزق ولا يتخيل العالم من دونه، لولاه لما خطر له أن يحترف الرسم. لولاه لقنع بالتصوير الفوتوغرافي والكتابة للصحف والمجلات. يسهل عليه النظر إلى الكتابة والتصوير كمهنتين ملائمتين له.

انتبه لأول مرة إلى فداحة تلاعب عينيه بما يراه أثناء زيارة إلى هولندا. أمام حقول التيوليب بمهرجان ألوانها المتنوعة. بدلًا من رؤية صف من الزهور البنفسجية، بجوار صفوف أخرى من مثيلاتها الصفراء والحمراء والبرتقالية، كانت مسحة زرقاء تغمر كل شيء. كان التيوليب كله منقوعًا في الأزرق، كأنه تكرار مرعب لزهرة واحدة.

استغل الفرصة لإغراق نفسه في الرسم، في ترجمة جنون عينيه إلى أعمال فنية، لم يكن متأكدًا من مدى جودتها، لكن كان لها مفعول السحر في طرد الهلاوس وجحافل الكآبة بعيدًا، ولو مؤقتًا. طالما يداه منشغلتين ومشدودتين إلى «باليتة» الألوان فهو آمن، أو على الأقل هذا ما كان يؤمن به.

مرة واحدة، تمنى لو انقشعت هذه الغشاوة الزرقاء عن عينيه. كان في إيطاليا، في سيارة تنقله من مطار مالبينسا إلى محطة القطارات الرئيسية بميلانو كي يستقل قطارًا إلى فيرارا. هواء الخريف يتلاعب بالأشجار، وبساتين الكروم والبرتقال ممتدة على طول الطريق، وأغنيات إيطالية لا يفهم كلماتها لكنها تسحره تنبعث من راديو السيارة، الشمس الساطعة كان من المفترض بها أن تضفي ألقًا على كل شيء، بطريقة تتيح للضوء أن يلهو بلا اكتراث، لكن بدلًا من الاستمتاع بألعاب الضوء والظلال، كان مشوَّشًا بغمامة تنقل له العالم مغلفًا بلون واحد وإن تعددت درجاته.

ارتدى نظارته الشمسية وأسند رأسه إلى مسند المقعد، مستسلمًا لعبث النسيم بشعره، ومحاولًا الرؤية بعينيّ ذاكرته.

في طريق العودة من فيرارا إلى ميلانو، ألغى حجز القطار، وعاد بسيارة مستأجرة، يخايله أمل مراوغ بأن البساتين والأشجار والشمس ستدخله في مزاج متوسطي، قد يعيد له عينيه القديمتين. وكل ما حصل عليه، كان عالمًا مفلترًا بالأزرق، وثرثرات لا نهائية من سائق، يجرب فيه

إنجليزيته الممطوطة ونكاتًا بذيئة، تدخله في موجات ضحك هستيرية، لا ينتبه معها إلى أن الراكب الجالس في المقعد الخلفي يقتله الضجر.

خلال تلك الفترة ظل السير بلا هدف ملجأه، كما كان دومًا. رغم تقدمه في العمر، حافظ على سيره الطقوسي المنقذ. كان ينظر إلى نقطة ثابتة في الفراغ أمامه، ويواصل المسير. تعاوده مشاهد من ماضيه: يرى وجه أمه المتعب المتغضن، ونظرة أولجا المتسائلة، وإيفان وهو يهلل فرحًا بهدية ما. يبصر نفسه جالسًا في عربة الطعام بقطار سريع، وأمامه شمعة مهتزة الإضاءة، ينسى المصابيح المضاءة في العربة ولا ينجح في استعادة شكلها ولا درجة إضاءتها، ويصاحبه فقط الضوء الشحيح للشمعة، والظلال المتراقصة حولها.

يدهشه أن ذكرياته القديمة متعددة الألوان، احتفظت ذاكرته اللونية بطاقتها كاملة، يغمض عينيه فتتداعى ذكرياته مصبوغة بألوان تشبه ألوان «التكني كولور» في الأفلام القديمة. زاهية كرنفالية لكن مصطنعة ومتكلفة. يشعر أن ألوان «التكني كلور» تلك شيء مادي ماثل أمامه، إن مد أصابعه سيقبض عليها، وإن حكها قليلًا، ستتلاشى وتذوب آخذةً معها ذكرياته.

ينفض الذكريات والصور بعيدًا. يفكر في حياته بمعزل عن ذكرياته عنها، فيشعر بنفسه أشبه بشخصية فنية عالقة في تلافيف عقل كاتبة شريرة، تغيظه احتمالية تجرُّؤ كاتبة مفترضة على العبث بتاريخه الشخصي، لكنه أيضًا يشفق عليها، إذ يستشعر حيرتها تجاهه، حيرة قد لا تقل عن حيرته هو.

لا يتصور أن يكتبه رجل، يجب أن تكون امرأة: ملول، لعوب، تستمتع بتحريك شخصياتها في دوائر مفرغة.

مؤكد أنها لن تعرف ماذا تفعل به! ولا إلامَ تقود الشذرات الغامضة التي تخايلها عنه! يفكر أنها لو كانت موجودة، ولو كان هو مكانها، وخطر

له أن يكتب حياته انطلاقًا من بضعة استيهامات وأفكار متشظية، سيلجأ إلى المكر والمراوغة لا عن جهل بنفسه أو ضيق بزئبقيته، لكن لأن هذه هي الطريقة المثلى لمقاربة شخص لا تكف أحاسيسه عن التبدل والتشكل وفقًا للفضاء المحيط؛ سائل يأخذ شكل الإناء المحتوي له، مع اختلاف أنه ليس سائلًا مسالمًا يترك للإناء اليد العليا في تشكيله، إنما تحت غطاء وداعته واستسلامه الظاهرين ينخر في مادة الإناء ويغيرها بدوره، يشكلها على مقاس رغباته المركبة ونزواته الأشبه بطلاسم.

كثيرًا ما كان ولا يزال يفاجئ نفسه بقرارات غير مفهومة ولا يمكن تفسيرها ارتكانًا إلى منطق واضح. كل النساء اللائي دخلن حياته اتفقن على أنه أحجية لا حل لها. لا سبيل إلى فهم دوافعه أو التنبؤ بردود أفعاله. وأكثر ما شكون منه كان صمته الدائم. لو كانت نساؤه وحبيباته السابقات نماذج ممثلة للنساء، فالنتيجة التي خرج بها من علاقاته المختلفة، أن النساء يكرهن الصمت، بل يخفن منه ولا يتسامحن مع الرجل الصموت. يرين في صمته إدانة مضمرة وحكمًا مسبقًا ضدهن. لا يحب التعميم، لكن لطالما كان الحال كذلك في ما يخصه. حتى أمه، المرأة الوحيدة التي أحبته دون قيد أو شرط، كانت تضيق بصمته، وتحاول جره للثرثرة وحثه عليها.

«تعبت من العيش مع صندوق مغلق». كانت تلك آخر كلمات أولجا له. بعد سنوات من محاولة «إنقاذ زواجهما»، كما كان يحلو لها القول. حزمت حقيبة واحدة وغادرت دون التفاتة للخلف. اختار إيفان العيش مع والده، وخلال سنتين التحق بالجامعة واستقل بحياته.

رغم ارتياح فلاديمير الداخلي لقرارها بالانفصال عنه، ضايقه أنها لم تأخذ معها سوى الضروري من الثياب والمتعلقات. بدت كأنما ترغب في إلغاء سنواتهما معًا من حياتها، ولا تريد ما يذكِّرها بها. راقبها بينما تضع الملابس القليلة المختارة في الحقيبة، بدا له المشهد مسليًا،

كأنما أُقتطِع من مسلسل تليفزيوني ما. كانت حركتها متوترة، انفعالاتها مكتومة، لكن غضبها واضح، كأن كظمها له ضاعف منه، فأظهره من حيث أرادت إخفاءه. خطر له أن يؤدي مشهدًا أخيرًا، أن يتوسل لها كي لا تهجره، لا يعرف إن كان أداؤه سيبدو مقنعًا أم لا، لكن على الأقل قد ترضيها معرفة أنه يريد بقاءها. في النهاية قرر أن لا مزيد من الألعاب.

بصوت محايد نطق بجملته الختامية: «ساندور يعيش في براغ».

خرج قبل أن ترد عليه. في غرفة المعيشة وصله صوت زجاج يتكسر، وبعد دقائق انصفق الباب الخارجي خلف أولجا وحقيبتها. لسنوات تالية، ظل لا يتذكر أولجا إلّا برفقة شظايا كريستال متكسِّر، خلَّفتها وراءها في مخدعهما.

لو كان له من ميلودراميتها نصيب، لرأى في هذه الشظايا أبعد من كونها بقايا تمثال من الكريستال الفاخر. يبتسم حين يحاول تخيل ما جال بخاطرها، حين رأت الشظايا متناثرة على الأرض، بعد أن رمت التمثال في نوبة غضب. لا علاقة لابتسامته هذه بالقسوة أو السخرية، فقط يسليه أن أولجا كانت - منذ البداية - كتابًا مفتوحًا أمامه كي يقرأ سطوره وما بينها، غالبًا هذا أكثر ما كان يضايقها. ربما كانت هناك كلمات ناقصة من جملتها الأخيرة، على الأرجح أرادت قول: «تعبتُ من العيش ككتاب مفتوح مع صندوق مغلق!».

غضبت حين أخبرها أن ساندور يقيم في براغ، خلفت وراءها شظايا كريستالية وصفقت الباب الخارجي بصوت مدوٍ، لكنها في نهاية المطاف انتقلت للإقامة في براغ هي الأخرى. وهو ما كان واثقًا من أنها ستقدم عليه طال الوقت أم قصر. لو كانت قد استقبلت جملته بغضب أقل، لربما منحها العنوان أيضًا، العنوان المكتوب بخط منمق على مظاريف، كان يحرص على إعادتها إلى مرسلها مغلقة كما هي.

بعد أن استقرت في مدينتها الجديدة بمدة، أرسلت له خطابًا طويلًا حافلًا بالتفاصيل والحكايات بدأته بـ«إلى فولوديا الحبيب». طلبت منه أن يظلا صديقين لمصلحة إيفان. ذكرت شيئًا عن أنها تحب براغ، وتشعر أنها تشبهها بشكل ما: امرأة أربعينية تبدأ مجددًا في مدينة دخلت لتوها مرحلة جديدة تعيد فيها اكتشاف تاريخها.

لم تأت على ذكر ساندور في أي من خطاباتها الأولى إليه، لكن بطريقة ما كان واثقًا من أنهما استأنفا علاقتهما. اعتاد الرد على رسائلها بانتظام، وإن برسائل مقتضبة خالية من الثرثرة والتفاصيل، وبالطبع لم ترَ في هذا تلميحًا منه بأن توفر حكاياتها لنفسها، لأنها اعتبرت ردوده المنتظمة معجزة، كونها تعرف بغضه لكتابة الرسائل وهروبه منها.

مع انتشار الإنترنت، تخلت عن الرسائل الورقية، وبدأت تمطره برسائل إلكترونية كثيرة، لكنها لحسن حظه أقصر وأبعد عن الثرثرة والتطويل. راقته هذه الوسيلة أكثر، وأصبح معتادًا على ميل أولجا لإخباره بتفاصيل يومها ونزهاتها ومعاناتها مع الكتابة، وشكواها المتكررة حين يتأخر في الرد عليها.

بدت علاقتهما، عقب سنوات طويلة من الزواج ثم القطيعة، كأنما تصل إلى حالتها المثلى. صارا صديقيّ مراسلة، لا يعكِّر الحب تواصلهما، ولا تشوِّش الرغبة عليه.

كانت تطلب منه أن يحكي لها عن جديده، تسأل إن كان مشغولًا بكتابة كتاب جديد، أو الاستعداد لمعرض فني أو فوتوغرافي. اعتاد الرد على أسئلتها باختصار، أو إرسال أحد مقالاته لها أو نقد صحفي لأعماله الفنية.

لم يحك لها عن تفاصيل تسكعه اليومي، أو النساء التاليات لها في حياته، ولا بالطبع عن مسحة الأزرق المغلِّفة لكل ما يراه مؤخرًا. فقط

أخبرها أنه جدد البيت، وغير كل الأثاث القديم، وأنها لو قُدِّر لها زيارته يومًا لن تتعرف على المكان باعتباره بيتًا سابقًا لها.

لم يخبرها، أنه لم ينظر إليه، طوال سنوات زواجهما، كبيت له، وأنه لم يقترب - في نظره - من مفهوم البيت وإحساسه إلّا بعد أن جعل الأزرق، بظلاله ودرجاته، اللون الطاغي عليه وعلى كل ما فيه. الأزرق الذي لطالما رأته هي معادلًا للبرودة والصقيع، هو معنى الوطن وتعريفه بالنسبة له. وطن خيالي، مقطوع عن العالم، تغمره ثلوج تخالط بياضها زرقة مغوية، تدعوه للالتحام بها والتماهي معها.

امرأة حلمت أنها وردة!

تنظر أولجا من النافذة فتلمح الفلتافا غارقًا في ذاته، وتل «بيترين» بعيدًا ومكللًا بالأشجار والخضرة في الجهة الأخرى منه. تتأمل جسر تشارلز من مسافتها الآمنة، فتكاد تبصر تماثيله الثلاثين كأنما لا يفصلها عنها سوى سنتيمترات قليلة. تحدس بأصوات السائرين عليه وبائعي اللوحات الفنية والصور الفوتوغرافية القديمة والحلي. يخطر لها أن «فولوديا» لو عاش في براغ لقضى معظم وقته عابرًا جسر تشارلز ذهابًا وإيابًا أو صاعدًا تل بيترين ثم هابطًا منه، بعد الارتياح قليلًا في «حديقة الورد» والمرور بـ«متاهة المرايا» والاستمتاع بمراقبة المدينة من أعلى برج بيترين، سيروقه حتمًا الإحساس المؤقت بأنها في قبضة يده وممتدة أمام عينيه، لكنه أذكى من الانخداع بمراوغتها، وسيدرك أنها ستظل أبدًا مستغلقة ومنكفئة على نفسها. تتساءل في سرها هل لا يزال محافظًا على عادة التسكع اليومي بعد كل هذه السنوات! الرسائل الإلكترونية التي يرد بها عليها مقتضبة في الغالب، لا يبوح فيها بالكثير عن حياته الشخصية أو تفاصيل يومه. حين يزورها إيفان في براغ، تستغل الفرصة لمعرفة أكبر قدر من المعلومات منه عن أبيه. لكنه مثله، صامت أغلب الوقت، وإن تحدث فعن أفكار وقضايا مجردة لا تفاصيل حياتية خاصة.

تدير ظهرها للفلتافا وتحاول ترتيب مكتبها، أو للدقة تحاول الوصول به إلى درجة الفوضى الملائمة لإلهامها. على الحائط المجاور علَّقت صورة بالأبيض والأسود لجسر تشارلز غائبًا في الضباب. وأخرى لـ«داتشا» على أطراف غابة خيمكي، ولوحة لقلعة - بأبراج عديدة - معلقة بين السحب وأسفلها جملة تشيسترتون: «لا قواعد معمارية لقلعة في الغيوم!».

تتأمل وردة برتقالية في كوب أزرق مرسوم عليه الجانب الأيمن لوجه كافكا بالأبيض، ثم تغرق في أحلام يقظتها على أنغام أغنيات فلاديمير فيسوتسكي، فيرتفع من غرفة ساندور صوت ماريا كالاس مخرِجًا أولجا من خيالاتها. لو كان ساندور شخصية فنية تكتبها لاختارت له أن يولع بصوت فيسوتِسكي. صوته نفسه يذكرها بالمطرب الراحل، يملك نفس البحة الحسية الخشنة بشكل محبب.

لكن ساندور ليس شخصية خيالية، كما أنه لا يطيق المغني الروسي، ولا يكف عن السخرية منه كأن ثمة عداءً شخصيًا بينهما، في حين أن فلاديمير كان مغرما بفيسوتسكي، ومؤمنا بأن من المستحيل على أي شخص غير روسي فهم ما تحتويه أغنياته من توريات واستعارات روسية صرفة.

ترفع صوت فيسوتسكي قليلًا فيرتفع صوت كالاس أكثر في منافسة غير معلنة بين الاثنين. صار ساندور لا يشبع من سماع كالاس. يغلق على نفسه باب غرفته بالساعات، وينساب الصوت الأوبرالي في الفضاء خارج حدود الغرفة، فيُخيَّل لأولجا أنه ما إن يخرج من شقتهما إلى الفضاء المحيط سيصير دخانًا. لم يعد ساندور يقترب من البيانو الخاص به، لا يكاد ينظر إليه أصلًا. فقط يستمع لكالاس بشغف يقارب الهوس،

ويخرج للتريض صباح كل يوم ويعود وفي يده باقة من زهور البيلسان، يضعها في مزهرية صغيرة فوق الكومود المجاور لسريره ويتأملها بافتتان. تتذكر أولجا كيف كان يحدثها عن زهرته المفضلة بحماسة في الماضي.

«انظري إلى هشاشتها ورقتها! حين تتأملين باقة كاملة منها من مسافة مناسبة، ستلاحظين أنها أشبه بدانتيلا بيضاء مغزولة بحب ومهارة».

اعتاد أن يردد هذه الجملة، كما لو أنها اكتشاف نادر توصل إليه للتو، فتوافقه هي ولا تنبهه إلى أنها سمعت هذا الكلام منه مئات المرات. مع الوقت صار التكرار سمة أساسية لشخصيته. يعيد سرد تفاصيل من ماضيه بشكل مختلف كل مرة. يتصرف كمن يبوح بأسرار عظمى، رغم أنها حكايات تحفظها هي عن ظهر قلب.

فاجأها أمس برغبته في العودة إلى «بودابست». لم يطلب منها أن تسافر معه. قال إنه لن يتوقف عن زيارتها في براغ، أو حتى في موسكو لو قررت العودة إليها. أدهشها أنه، على مدار سنوات علاقتهما الممتدة، كثيرًا ما أكد أن مدينة طفولته وصباه قد زالت، وحلت محلها مدينة أخرى لا تشبهها ولا صلة تربطه بها. اعتاد أن يقطع زياراته النادرة لها بعد يومين على الأكثر، مبررًا هذا بأن وجوده في قرينتها المزيفة، يكشف له أن أحداث ماضيه وهناءاته مجرد أوهام لا دليل عليها. وحده الدانوب يهمس له بأنه عاش هناك ذات يوم، وتسلق الأشجار، وسقط من فوقها حتى تحولت ساقاه إلى خريطة غير مقروءة من الخدوش والندوب.

لم تعترض أولجا على قراره، ولم تحاول ثنيه عنه. احتضنته طويلًا وقبّلت رأسه. أخبرته أنها ستزوره هي الأخرى ما أن يستقر هناك. خاطر ما أسرّ لها بأنه سيفعل هذه المرة. احتفلا معًا بعشاء على ضوء الشموع. زينت له المائدة بزهور البيلسان وبمفرش من الدانتيل الأبيض. بدا سعيدًا لتقبلها قراره ببساطة، تصرف كأن عبئًا قد أُزيح عن كاهله. أخبرها

أنه سيعود للعزف مجددًا، وأنه طلب من وكيله ترتيب بضع حفلات له في بودابست. شربت معه كؤوسًا عديدة من «البالينكا»[1] نخب نجاحاته المرجوة، وأسعدتها النبرة المتفائلة لكلماته.

سهرا الوقت متأخر يستعيدان تفاصيل ماضيهما المشترك. لاحظت أنه أُخِذ حين ذكَّرته بلقائهما الأول في حديقة «جوركي»، وبالشجار القديم بينه وبين فلاديمير أمام الداتشا الواقعة على أطراف غابة «خيمكي». صمت حائرًا لبرهة، قبل أن يرد بأنهما التقيا، أول مرة، في حفل رسمي أُقيم في براغ بمبنى البرلمان القديم. ضحكت حتى دمعت عيناها، لطالما أعجبت بخفة ظله وقدرته على توليد الضحك بجمل تبدو جادة ظاهريًا. لم تنتبه لحيرته وهو يتابع ضحكها الصاخب، أمسكت بيديه وقبلتهما وهي تتمنى له التوفيق.. هناك في مدينة ليست مدينتها وحياة لن تشاركه فيها. استعادت في سرها تفاصيل الحفل الصاخب على هامش مهرجان موسيقي كان أحد المشاركين فيه. لم يكن من الصعب الوصول إلى عازف معروف مثله في مدينة كـ«براغ»، أو تأمين دعوة لنفسها إلى الحفل عبر ناشرها التشيكي. حين لمحته واقفًا مستندًا بمرفقه إلى طاولة مرتفعة وبيده كأس شامبانيا، كاد قلبها يتوقف. لم تتجه إليه فورًا، كما ظنت أنها ستفعل خلال كل المرات التي تخيلت فيها لقاءهما بعد قطيعة امتدت لسنوات، ظلت فقط تتابعه من الجانب الآخر منتظرة أن ينتبه لوجودها. كانت واثقة من أنها ستدرك، من ردة فعله على رؤيتها، إن كان لا يزال يحبها أم لا! تعلقت عيناها به. تناست الثرثرات حولها، الموسيقى ورنين الكؤوس. ما إن لمحها حتى أشرق وجهه، فاتجهت نحوه متجاوزة زحام الواقفين بينهما يشربون ويتضاحكون. لم يحتاجا للكلام، ظلت ملتصقة به طوال الساعة التالية مرتاحة للبقاء في حضنه، ثم انسحبا من الحفل متجهين إلى شقته. في الطريق ابتاع لها باقة من زهور البيلسان.

(1) البراندي المجري، ويُصنَع من الكرز أو المشمش أو الكمثرى.

لم تصدق في البداية عندما أخبرها بأنه أرسل لها عشرات الرسائل راجيًا إياها أن تلحق به في براغ لكن الرسائل كانت تُرَّد إليه مغلقة كما هي. غير أنه حين حدثها عن لقائه الأخير - قبل رحيله عن موسكو – بفلاديمير، أدركت أن فولوديا هو من أخفى عنها الرسائل الأولى وأعاد الخطابات التالية لمرسلها.

كان ساندور لا يزال على تشوُّشه، وهو يعب كؤوس «البالينكا»، وينظر إليها عبر المائدة كمن يرغب في سؤالها عن شيء لا يدرك ماهيته، فابتسمت رغمًا عنها لتعبيره الذاهل. لطالما شعرت معه بأنها شخصية أخرى أكثر بساطة وبُعدًا عن المبالغة والتهويل. ربما لو كان فولوديا هو من باغتها بقرار مماثل لتشاجرت وغضبت، أما مع ساندور فلا شيء يستدعي ردود الأفعال الدرامية أو حتى أي ردود أفعال.

استيقظ صباحًا كأنه شخص آخر غير من سهرت معه حتى بزوغ الفجر. كان شاردًا ومقتضبًا في الحديث، خرج لنزهته الصباحية وعاد بزهور البيلسان كالمعتاد. أخبرها أنه سيسافر خلال يومين ودخل لحزم حقائبه كمن يستعجل الرحيل، ثم تعالى صوت كالاس ما إن شغَّلت هي أغنيات فيسوتسكي.

عاودت تأمل وردتها البرتقالية. لا تتذكر متى صار وجود وردة بهذا اللون أمامها أحد طقوس الكتابة لديها! بل لا تعرف متى أدركت أنها ملتزمة بطقوس وعادات لا تستطيع التخلي عنها بسهولة!

فكرت في كاميليا، ابنة تخيلاتها وأحلام يقظتها، فَرَاقها أن يكون لها، هي الأخرى، شعائر يومية لا غنى عنها. كأن تكون مثلًا معتادة في طفولتها على عد خطواتها، وإذا أخطأت أو نسيت تتوقف عن السير وتعود لنقطة البدء، أو أن تكون قد ظلت تحرص على طلب مشروب بعينه بعد رحيل أبيها بفترة، رغم أنها لا تستطعمه بمذاقه اللاذع، لكنه

صار جزءًا من علاقتها بأبيها وطقسًا يبعد عنها الشعور بالذنب لأنها كرهت دومًا مشروبه المفضل، ولم تكن قط الابنة التي حلم بها!

في الكتابة أيضًا، على كاميليا، أن تسير وفق شعائر تُخلِص لها تمامًا. في البداية كانت، مثلًا، لا تستطيع الكتابة سوى في حديقة بيت أهلها أو في الصالة شحيحة الإضاء في الجناح الخلفي منه. وكانت لا تكتب إلّا بنوع معين من الأقلام، من دونه تشعر بالتشتت وعدم التركيز. ثم بدأت مرحلة الارتباط بحاسوب معين، أوغرفة أو مقهى بعينه. المهم الحفاظ على روتينها المعتاد مهما حدث.

تذكرت أولجا كيف تخيلت كاميليا جالسة على مقعد في حديقة عامة قريبة من النيل وهي منكمشة على نفسها كطائر مبلل وجريح، فخطر لها أن تكون الشعائر شبه الثابتة وسيلة كاميليا في الانسجام مع العالم من حولها، كأنها تتخذ من شعائرها بيتًا بديلًا، تستأنِس الأماكن الغريبة والأوقات المضطربة وتروِّضها بألفة الطقوس اليومية. بل كأن هذه الطقوس تحديدًا هي كاميليا، هي هويتها وجوهرها، بحيث قد تذوب وتغرق في هوة العدم من دونها. تضيع لو توقفت عنها.

بالنسبة لكاميليا - كما تتخيلها أولجا - يقترب الخضوع لشعيرة يومية مسيطرة من الهوس، ويصبح عادة إدمانية مُستَعبِدة. لا عجب من أن «الشعيرة» - كمفردة - ذات جذر ديني، إذ تشير إلى طريقة من طرق العبادة، والعبادة غير بعيدة عن الاستعباد.

تهز أولجا رأسها، وتتبنى تعديلًا طفيفًا. تقرر أن كاميليا، رغم خضوعها شبه التام لشعائرها وعاداتها، تستبدل بها أخرى من مرحلة عمرية للتي تليها. كأن طقسها الأساسي هو أن يكون هناك طقس ما، حتى وإن تبدَّل عبر السنوات. لا يعني هذا أنها تقاوم طقسًا ما وتلوذ بآخر، على العكس من هذا، تخضع لها باستمتاع غير مفهوم، تنغمس

فيها حتى تتلاشى من تلقاء نفسها، ولا تنتبه هي لتلاشيها إلّا حين تدرك أنها تبنت شعيرة جديدة.

لفترة قد تطول أو تقصر، سيكون الجلوس شاردة إلى مقعد في الحديقة القريبة من النيل طقسها الأثير. تمر الساعات دون أن تحس بوطأة مرورها.

يرتفع صوت ماريا كالاس مجددًا، حتى يتحول إلى محض ضجيج، فتقاوم أولجا ارتفاعه المبالغ فيه بالانغماس أعمق في خيالاتها. تسليها اللعبة، فتحاول نقلها إلى مستوى أعلى: ماذا لو كانت كاميليا الجالسة إلى مقعد الحديقة - تائهة في أفكارها وهي ترنو لشجرة مجاورة - تفكر في روز زوجة آدم راغبةً في تحويلها إلى شخصية فنية؟!

تتراءى روز دومًا لكاميليا وهي تهز أرجوحة فنائها الخلفي كأنما تؤرجح طفلًا لا مرئيًا. تعاطفت كاميليا معها حين حكت لها عن طفلتها التي رحلت وهي في الخامسة، ومحاولاتها غير الموفقة للحمل مجددًا. اندهشت لأن آدم لم يخبرها - حين التقيا في براغ - عن طفلة راحلة، وتضاعفت دهشتها عندما عرفت منه، في آخر يوم قضته في ضيافتهما، أن زوجته لم يسبق لها الإنجاب.

لم تكن روز تكذب عليها، هي واثقة من هذا. بدت مؤمنة تمامًا بما تقوله، لدرجة أن عينيها اغرورقتا بالدموع. حاولت كاميليا حينها تخيل ملامح الابنة المفترضة لروز وآدم فلم تفلح. كأنما قرأت أفكار ضيفتها، وصفت روز لها صغيرة شقراء بعينين تميل زرقتهما إلى البنفسجي الفاتح. قالت إن اسمها كان «فيوليت» نسبةً للون عينيها، والأرجواني بدرجاته كان اللون الغالب على ملابسها.

لن تعرف كاميليا أبدًا أن فيوليت كانت شقيقة روز وليست ابنتها، ستظنها مجرد حكاية مختلقة، أو طيفًا محلومًا به ومرغوبًا فيه، وإن كانت

لن تفهم ما الذي يدفع زوجة آدم لاختلاق «ابنة» وهمية والكلام عنها بهذا التأثر الطاغي. يومها ترددت كاميليا قليلًا، ثم حكت لمضيفتها ما سبق وضنّت به على آدم خلال جلستهما المشتركة ببراغ. بصوت هادئ، يكاد يخلو من المشاعر، قالت لروز إنها فقدت جنينًا في أسبوعه السادس، لم تشرح الخلفيات ولا التفاصيل، ولم توضِّح أنها أجهضته، كما لم تبح بإحساسها المؤقت بالارتياح وما تلاه من شعور مهيمن بالذنب وأرق وكوابيس، إلّا أن مضيفتها بدت كما لو كانت تفهم كل هذا من تلقاء نفسها، إذ احتضنت كفها بين يديها، وسحبتها برفق إلى الحديقة، حيث أجلستها على الأرجوحة وراحت تؤرجحها بصمت. ارتياح كاميليا للحركة المهدهدة اختلط بقلق من أن تكون ثقيلة على الأرجوحة المناسبة أكثر للأطفال أو لجسد ناضج نحيل. خشيت أن تنقطع السلسلة التي تربطها بالشجرة أو ينكسر الفرع الحامل لها، غير أنها تناست وساوسها هذه، واستسلمت لإحساس التأرجح المهدِّئ لأعصابها.

طوال الشهور التالية، لن تتذكر روز كاميليا إلّا عبر لحظتهما تلك. لن تستعيدها كامرأة ناضجة بل كطفلة متألمة في حاجة إلى التربيت والاحتضان. ستقرأ - بترشيح من آدم - بعض قصصها المترجمة إلى الإنجليزية، وتكتب لها أن القصص فاجأتها كونها مختلفة، حد التضاد، عن شخصية كاتبتها أو على الأقل ما يبدو من هذه الشخصية للآخرين. ستعجز عن توضيح ما تقصده، وستتمنى لو تفهمه كاميليا دون حساسية أو حاجة للشرح.

كانت روز تقرأ قصة كاميليا، «حيث السحب منخفضة»، في الفراش، ثم غلبها النوم فاستسلمت له وتاهت في أجواء حلم مصبوغ كعادة أحلامها بألوان «السيبيا» البنية المائلة للحمرة. على غير العادة لم تكن طفلة، ولم تكن في بيت أهلها القديم، بل فوق تل يشرف على صحراء شاسعة بها بستان زيتون وبئر.

في الحلم، كانت روز وردة بيضاء - أوراقها ملتفة حول نفسها - مزروعة أعلى تل. كانت وردة بيضاء، ومع هذا كانت تشعر بجسدها الآدمي كما لم تشعر به من قبل: بكثافة ووضوح. وكانت حواسها مشحوذة كأنها تضاعفت وتجاوزت حدود الضعف البشري. لم تكن موسومة بالنقصان، بل تامة وكاملة لدرجة موجعة. ثم هبّت ريح فصلتها عن غصنها، فتدحرجت من أعلى التل، لم يؤلمها التدحرج، بدا كأنه خصيصة تتمحور حولها حياتها. في منتصف المسافة نحو الأسفل، بدأت بتلاتها في الانفصال والتطاير بعيدًا. مع كل وريقة تنفصم عنها، كانت تشعر كأن عضوًا من أعضاء جسدها يذبل ويموت. في النهاية لم تكن سوى عينين محدقتين في بتلات حليبية تتلاعب بها الريح.

في السفح كان ثمة بستان زيتون، على رأسه مقعد، يجلس فوقه رجل وامرأة يديران ظهريهما للبستان، ويحدقان نحو البئر وصحراء شاسعة تمتد أمامهما. العينان الباقيتان ظلتا تتدحرجان - رغم استواء الأرض - بعد أن وصلتا للسفح، ثم كفتا عن كونهما عينين، وعادتا وردة كبيرة بيضاء سرعان ما انقسمت إلى ورود عديدة لونها أرجواني تزين شجرة ورد في حديقة مهملة لبيت عتيق أعلى التل. شعرت روز كما لو أن جسدها انقسم على نفسه هو الآخر ونتج عنه روزات عديدات، مثّلن ذواتًا متنوعة لها، تهتز بنعومة بفعل النسيم المتلاعب بأعشاب الحديقة ونباتاتها. على مقربة كانت هناك خيمة بها ستة رجال يتجادلون بأصوات خشنة مُبالَغ في ارتفاعها، بينما يتناولون أكوابًا متتابعة من الشاي، ويشعل كل منهم سيجارته من التي تسبقها. من نافذة جانبية أطل رجل ستيني ناظرًا للسماء كأنما يرغب في حفظ تفاصيلها في قلبه، ثم رنا طويلًا نحو الورود الأرجوانية. جسده مشدود ووجهه مرهق وعيناه زائغتان، لكن هناك سكينة رواقية تغلِّفه كأنه واقع تحت تأثير مهدِّئ ما.

غاب مفهوم الزمن كما تألفه روز في الواقع. في حلمها بدا زمنًا مكثفًا

كأن أعمارًا وحيواتٍ كاملة ممكن ضغطها في لحظات، أو كأن كل وردة أرجوانية صغيرة، بإمكانها التحديق في زمن مغاير لما تعاينه جاراتها.

أخيرًا غادر الرجال خيمتهم، واتجهوا للبيت، قبل أن يخرجوا مجددًا. اثنان منهم يجران الرجل الستيني، كما لو كان جوال بطاطس، بينما يحاول هو تسريع خطوته؛ كي يبدو كالسائر معهما بإرادته، والأربعة الباقون يحيطون به وأسلحتهم مشهرة. رغم محاولاته للإسراع، بدا الرجل في عالم آخر.

بعد وقت لا تعرف إن كان طويلًا أم قصيرًا، تناهى لروز المنقسمة إلى ورود أرجوانية يهزها النسيم، أزيز متواصل لطلقات آلية، توقف لبرهة، ثم عاد أقوى من السابق، قبل أن يرين السكون. لاحقًا، سيخطر للرجال الستة أن الرجل الستيني كان واقعًا تحت تأثير مهدئ ما، وسيتبادلون الاتهامات، ويحاول كل منهم التبرؤ من مسؤولية حقنه بالمهدئ. بالنسبة لهم، كان ينبغي أن يظل ذهنه صافيًا، أن يبكي ويتوسل ويرتمي على الأرض مستعطفًا، لكنه بدلًا من هذا، وقف هادئًا غير مكترث، فخلا تصوير المشهد من المغزى المراد.

كان صوت الشجار لا يزال طاغيًا، حين تسلل أحدهم عائدًا إلى حيث اصطحبوا قبلًا الستيني وتصاعد الأزيز. ثم غاب كل شيء خلف ستارة أرجوانية سميكة، وصحت روز مرتعشة بجفنين متورِّمين وقد تلاشت معظم وقائع حلمها من ذاكرتها، ولم يبقَ منها سوى زهرة متدحرجة من فوق تل يعلوه بيت أشبه بقلعة مهيبة معلقة بين السحب.

حَبَّة واحدة تكفي!

«حبّة واحدة في المساء تكفي!». قال الطبيب.

«سوف أنتظرك في المستشفى في العاشرة صباحًا». قال أيضًا.

جالسة في الفراش وفي يدها الحبّة مغلفة لا تزال، وعلى الكومود كوب ماء أحضره منير قبل أن يتمدد بجانبها. لم يتكلم، فقط أطبق كفيه على يدها الأخرى، منتظرًا إياها بهدوء.

ابتلعت الحبّة، في النهاية، وشربت الماء. دفنت وجهها في الوسادة، فاحتضنها حتى نامت. في المستشفى، لم يكن لديها ما تقوله، سأل منير الطبيب عن أدق التفاصيل، وجهه غير مقروء ومع هذا يصلها حزنه وإحباطه.

«عملية تنظيف بسيطة». قال الرجل بصبر نافد، فترددت العبارة في عقلها بلا توقف.

غادرت بصحبة منير. لم يتكلم ولم يفتح معها الموضوع مرة أخرى، هرب كل مرة لمَّحت فيها إلى «عملية التنظيف البسيطة». حفر عميقًا بداخله، ودفن تلك الليلة وذلك اليوم وأهال التراب عليهما. تمنت كاميليا لو تستطيع تقليده، لكن حفرتها هي لا سبيل إلى ردمها.

***

سرطان في المرحلة الثالثة، هكذا شخَّص الطبيب مرض أمها. لم تستوعب كاميليا ما تعنيه المرحلة الثالثة هذه. أوضح أنه انتشر من نقطة انطلاقه إلى مراحل أخرى، وأن الجراحة لم تعد خيارًا واردًا. بهدوء لا علاقة له بانهيارها الداخلي، سألته عن فرص النجاة. فأجاب باقتضاب أن الخلايا القاتلة بدأت من الرئتين. «سرطان رئة»!

لم يضف حرفًا واحدًا، كأن في هذا جوابًا مُرضيًا على سؤالها. ستعرف كاميليا لاحقًا أن نسبة النجاة من هذا النوع من السرطان ضئيلة، وتكاد تنعدم ما أن تبدأ الخلايا انتشارها خارج الرئتين.

كان الطبيب قد طلب «مسحًا ذريًا» لجسد الأم لتتبع خريطة انتشار الخلايا الخبيثة، وأمر كاميليا بعدم قضاء ليلتها في غرفة أمها بالمستشفى لأن اقترابها من جسد ممسوح ذريًا، يمثل خطورة على مبيضيها، وقد يسبب العقم.

أخبرته باستحالة تركها لأمها في حالتها هذه، وافق على مضض على بقائها كمرافقة، وإن شدد عليها ألّا تقترب كثيرًا من أمها حتى اليوم التالي.

كانت دولت ممددة على السرير وعيناها مغمضتان، من رقدتها في الجهة الأخرى من الغرفة، حدست كاميليا أن أمها تبكي بصمت. لم يكن ثمة صوت ينبعث من ناحيتها، كما أخفت الإضاءة الخافتة أي دموع محتملة، ومع هذا عرفت الابنة أن والدتها تبكي. تمامًا كما تثق - بلا دليل مادي - في العلامات وتؤمن بالتناسخ والملاك الحارس، كانت متأكدة من بكاء أمها.

اقتربت كاميليا منها، وجلست على ركبتيها فوق البلاط البارد، ويدها على الوسادة. «احضنيني» طلبت دولت، ودون تفكير صعدت كاميليا بجانبها، تمددت واحتضنتها من الخلف. تجاهلت تحذيرات الطبيب، لم تفكر في المخاطر المحتملة، كانت تلك فرصتها لحميمية لطالما

افتقدتها في علاقتها بدولت. حضن أمومي حنون لا تتذكر أنها اختبرته قبلًا، مع فارق دال، لم تكن هي الابنة في تلك اللحظة، بل الأم؛ صارت أمًا لمن انجبتها.

التصقت بأمها وتحركت يدها على جسدها في تربيتات مهدئة ومطمئنة، فاستحال البكاء نشيجًا. مسحت كاميليا الدموع. جاءت الممرضة مرتين وانصرفت. حقنت مريضتها بمسكن ألم، فنامت بعد ليالٍ من الأرق. لم تخفف كاميليا من احتضانها، كانت تحتاج إلى الدفء والطمأنة أكثر من دولت.

لم تخبر منير بما حدث، اعتبرته سرًا حميمًا في علاقة خلت من الحميمية والأسرار. منذ وعت على حقيقة أن المرأة والرجل اللذين تعيش معهما في البيت الصامت هما والداها، لم تجد برهانًا عاطفيًا على هذا، رغم محاولاتها.

لم تهتم بإجراء فحص للمبيضين، ولم تندم قط على احتضانها لأمها طوال الليل. وعندما لم تحمل بعدها، ظنت أن السبب يعود لتعرضها لإشعاعات المسح الذري ولم تنشغل بالأمر، منير لديه ولدان من زواجه السابق، وهي ليست متحمسة كفاية لتجربة الحمل والإنجاب.

مرت سنوات على وفاة أمها ولم يحدث حمل، فتحول تخمينها إلى حقيقة لا تقبل الشك، لذا لم يرد احتمال الحمل ببالها، بعد سنوات طويلة، حين تأخرت دورتها الشهرية وشعرت بإرهاق ودوخة دائمين، وتضاعفت ساعات نومها. فقط حين صار الغثيان رفيقًا لصباحاتها، قررت إجراء اختبار حمل منزلي.

حامل؟ استغربت الكلمة. لم تفكر في أنها قد تقترن بها يومًا، خاصة وقد وصلت إلى أواخر الثلاثينات. لم تدر أهي فرحة أم حزينة! المؤكد أنها شعرت بإثارة ممزوجة بالقلق. فاجأها ابتهاج منير؛ لم يسبق له

التلميح حتى برغبته في طفل منها، ناهيك عن مناقشة المسألة بتوسع. كان متحمسًا كأنه يختبر مشاعر الأبوة لأول مرة.

لم يكن طبيب العائلة بالحماسة ذاته. طلب منها فحوصات وتحاليل عديدة بتعبيرات وجه محايدة.

«شاكك في حاجة يا دكتور؟». سأله منير فأجاب بهدوء.

«للاطمئنان بس».

ضعف في عضلة القلب. استمرار الحمل قد يمثل خطورة على حياة الأم. القرار لكما. هذا خلاصة ما قاله الطبيب.

أما منير فأخبرها أن القرار لها. «قرارك وجسدك!». قال مضيفًا إنه لا يحتاج إلى أطفال وإن حماسته للطفل كان لأنه منها هي، ولا أحد أو شيء سيعوضه عنها.

فكرت كاميليا أن الولادة قد لا تشكّل خطرًا على حياتها، وأنها بقرارها إجهاض الطفل سوف تحرم روحًا من آلاف لحظات الفرح والحزن والأسى والاكتشاف. سوف تضع نهاية لمئات الاحتمالات الخاصة بحياة في طور التشكل. لم تتخيل قط نفسها كأم جيدة، بل لم تتخيل نفسها كأم على الإطلاق، ومع هذا بدأت مشاهد تتكون في رأسها لها وهي مع ولد له عينا منير وابتسامتها، أو بنت ترث خيالها وعنادها وقوة منير وحزمه.

لم يستمر منير على حياده. توسل إليها أن تتخذ قرارها بسرعة قبل نمو الجنين أكثر. لم يخف هذه المرة ميله لإنهاء الحمل، بل نصحها باتخاذ هذه الخطوة.

ذهبا إلى الطبيب بقرار مشترك. طلب منها الرجل تناول حبّة دواء - أعطاها لها - في المساء، والمرور عليه في المستشفى صباح اليوم التالي.

«حبّة واحدة في المساء تكفي». قال.

«عملية تنظيف بسيطة». أضاف.

أفاقت من التخدير لتجد منير يجلس بجانبها ممسكًا بيدها.

«كلمني». طلبت منه، فحكى لها عن قبلتهما الأولى في الشرفة المظلمة، عن انتظاره لرؤيتها من حفلة لأخرى، وجهده الخارق كي لا تفضحه عيناه حين يراها. ذكَّرها بطفلة بدينة كادت تحرق شعرها بلهب شمعة، وشعوره المبهم بأنه مسؤول عنها منذ تلك اللحظة.

في البيت، نامت كأنما تعوض سنوات من الأرق. لجأت إلى الحبوب المنومة. لم تكن موجوعة جسديًا بقدر إنهاكها النفسي. خلال تلك الفترة، كان ثمة مشهد يتكرر في ذهنها بلا توقف:

ترفع كأس ماء إلى فمها، ترتعش يدها، فيقع وينكسر. تنحني على شظايا الزجاج، وبدلًا من جمعها وتنظيف المكان، تستغرق في البكاء. تبكي بحرقة لا يفهم منير سببًا لها، ولا يسأل عن سبب. يساعدها على النهوض ويجلسها في حضنه، يمسح دموعها ويرتب خصلة نافرة من شعرها خلف أذنها.

تدفس وجهها في صدره وتنتحب. تعود طفلة كاد لهب الشمعة يحرق شعرها، ولم يلاحظها في صخب الحفل وضجيجه سواه. تفكر في أنه بتغطيته رأسها حينذاك بسترته وجسده، كان يتعهد - دونما قصد - برابطة لن تنفصم حتى وإن تغيرت طبيعتها من زمن لآخر.

لا تتذكر سبب بكائها القديم ولا إن كان المشهد حقيقيًا أم لا، لكن مجرد استعادته تشغلها مؤقتًا عن ما هي فيه من اكتئاب لم تتوقع شدته. ركن منير إلى الصمت، خصص لها جزءًا كبيرًا من وقته، وحاول أن يكون بجوارها طالما هي مستيقظة، غير أنه نادرًا ما كان يتكلم.

«أن أحمل وأنجب طفلًا، يعني أن أذوب وأتحلل لأكون آخر، لأكوِّن آخر. سيتغذى عليّ: على دمي وأعصابي ولحمي». اعتادت أن تقول في سرها، لإقناع نفسها بأن تلك حميمية لم تكن لتقوى عليها، لم تكن لتتحملها. احتمالية أن تُوَاجَه بنسخة أخرى منها تزعجها، وإمكانية أن تخلف ذاتًا ممعنة في اختلافها عنها تشعرها كما لو أنها ستتعرض لخيانة لا تُطاق، وما بينهما من درجات لا يمنحها عزاءً يُذكر.

بعد أسبوع من التكاسل في فراشها، صار مجرد الوجود في البيت يخنقها، في تلك المرحلة اعتادت التسكع في الشوارع بلا هدف، ثم الجلوس لساعات في أي حديقة عامة تقابلها. من بين متنزهات عديدة ارتادتها، ارتاحت للحديقة الصغيرة في مواجهة دار الأوبرا. هناك بددت بعضًا من أيامها شاردة في الفراغ أمامها، أو محدقة في تشكيلات السحب أو فقط منصتة لأصوات السيارات المارقة في شارع التحرير القريب - تحديدًا في المسافة الفاصلة بين كوبري قصر النيل وكوبري الجلاء - في طريقها لوجهات لا تعرفها كاميليا، وتنشغل أحيانًا بتخيلها، في تدريب فعَّال على قتل الوقت والتمثيل بجثته.

أثناء تلك الجلسات، بدأت في تخيل الهوة المتسعة باطراد بداخلها، بل بدأت في رؤيتها ما أن تغمض عينيها. هوة عميقة مظلمة في البداية، قبل أن تنقشع عتمتها كاشفةً عن مياه ساكنة تدعو كاميليا للغرق فيها.

تتلاشى الهوة وتجف المياه، تفيق وتلتفت للجهة الأخرى، فتلمح شجرة جميز ضخمة على مقربة، تعاود الشرود مجددًا متجاهلة وجود الجميزة. تدرك أن لا وعيها يلاعبها ويتسلى بتعذيبها، وتحدس بأن انتباهها للجميزة، في هذه اللحظة تحديدًا، ما هو إلّا علامة وتذكير بالحفرة الآخذة في الاتساع بجوفها. تقف معلومات كاميليا عن هذه الشجرة راسخة، تتحداها أن تنسى ما سبق وقرأته واستقر في وعيها:

تقول الأسطورة إن الفراعنة أطلقوا على الجميز «شجرة الحب»، وآمنوا بأن روح «أتوم»، كبير الألهة، تجسدت فيها. تحتها قتل سيت أخاه أوزيريس، وجعل من جذعها، بعد تفريغه، تابوتًا له. هكذا صارت الجميزة، وفقًا للميثولوجيا الفرعونية، أول تابوت في التاريخ، ومع هذا نُظِر إليها كـ«شجرة الحياة»، لأنها قبل أن تكون تابوتًا لأوزيريس كانت مهدًا له، حيث أنجبته «نوت» ربة السماء داخلها، من هنا كانت تجليًا لخصوبة «نوت»، كما اقترنت بحتحور المعروفة بـ«ربة الجميزة».

كانت كاميليا جميزة جنينها. كانت جذعًا تم تفريغه، بقرار منها، وحفر فجوة بداخله، تحيله إلى تابوت، بعد أن كان مهدًا لطفل.

اسم اللعبة

سقطت «أليس» في حفرة الأرنب لتطأ أرض العجائب، وقضى آدم أوقاته في ظلمة قبو مزدحم بالكراكيب ومغطى بالغبار، فأتقن سبر أغوار ذاته، وسقط آخرون ليُفَاجَأوا، في النهاية، بقاع هاوية أو جحيم في انتظارهم.

أما في حالة كاميليا، فلا أرض عجائب ولا من هاوية أو جحيم. فقط، سقوط دائم: سقوط حر بلا قرار ولا رغبة في الوصول إلى مستقر، بل شوق مُذِّل للغرق.

جوع لا وسيلة لإشباعه، يشبه ما اختبرته، يوم ضلت طريقها بينما تقود سيارتها، في منطقة غير مألوفة لها.

كانت في طريقها إلى شاليه الساحل الشمالي، حيث ينتظرها منير وابناه من زوجته الأولى. انحرفت بالخطأ إلى طريق جانبي موازٍ لمصرف مائي. لاحظت أن الطريق مهجور، ولم تبصر إنسانًا على مرمى البصر. ركنت سيارتها تحت شجرة كافور، وخطت صوب ضفة المصرف. الشمس الشديدة انعكست أشعتها على الماء فاستحال سطحًا مصقولًا.

بدا مغويًا بدرجة تفوق قدرتها على الاحتمال أو المقاومة. بصعوبة امتنعت عن رمي نفسها فيه. عادت إلى السيارة واستدارت بها عائدة

للطريق الرئيسي. للحظات خطر لها أن تقودها نحو الماء، متخيِّلة نفسها تنحدر للأعماق في صندوق معدني مغلق. اقتحمها إحساس بالغرق، شعرت برئتيها تتضخمان حد الاختناق، وأحست بالمياه تملأهما، كافحت من أجل شهقة أكسجين، اكتنفتها ظلمة لم تعرف مصدرها، ثم ارتعشت، وهزت رأسها بقوة، فأفاقت من جديد، لتجد نفسها تقود سيارتها في الطريق الفرعي. لم تفهم طبيعة ما مرت به؛ تلك الهنيهة العابرة لم تكن حلمًا ولا كابوسًا: كانت أشبه بتجربة روحية مزلزلة.

زلزال عاودها، بعد سنوات طويلة، أمام بحيرة «قارون» في الفيوم. المياه المتلألئة للبحيرة وقت الظهيرة كانت مغرية بالغرق. بدت كأنما تدعو كاميليا للالتحام بها والنوم في أعماقها، حيث ستلتقي بمغزى وجودها، وستلتئم الفجوة المتسعة بداخلها. شمس الظهيرة، تلك المحرضة كل شيء على انتعال ظله، حوَّلت سطح الماء إلى فضاء من ماس برَّاق، أوحى لكاميليا بأنه سوف ينشق ليبتلعها، ثم سينغلق على نفسه مجددًا.

هذا السكون المخاتل، في بحيرة قارون وما يشبهها، هو ما يفقد كاميليا سيطرتها على توازنها النفسي، ويوقظ فيها ميولًا للاستسلام لإغواء لا تفهم سر جاذبيته، لكنها تعرف أن لا قدرة لها على مقاومته أو رغبة فيها. إغواء أن تصبح سمكة، الماء امتداد لجسدها، بيتها ومسكن روحها. سمكة تسكن الأنهار والبحيرات، وتحلم، فقط تحلم بالبحار البعيدة كفكرة غير قابلة للتنفيذ.

أمام البحر، لا يساور كاميليا شعور مشابه. شيء ما في صخب البحر وهيجانه يجعله متوقعًا حتى في انعدام توقعه. وهي فيه تترك نفسها لأمواجه تتلاعب بها، لكنها تظل يقظة مستعدة لمقاومة هيجان أمواجه ومدركة لغربتها عنه. على عكس البحيرات والمياه الساكنة، ينعش البحر نزعة القتال بداخلها، ترغب في تحديه وهزيمته رغم أن هذا بعيد عن

شخصيتها كما تعرفها. يحتضنها منير وهو معها في البحر: «استرخي، اتركي نفسك للماء، استمتعي بالطفو فوقه». يقول لها، فتفكر في أنها لو تخلت عن حذرها لدقيقة سوف تخون السمكة النهرية الكامنة بأعماقها.

تندهش من أنها صمدت في تقبل حياتها المضجرة كل هذه السنوات، ولم تشعل النيران فيها، كي تنتقل إلى مرحلة أخرى لا تثقلها فيها جذور تمتد للأرض رغمًا عنها، مرحلة تتماهى فيها مع الغجر، أبناء الشمس والطبيعة. ومع البدو الرحل، مَن لا تحدهم حدود ولا يستعبدهم وطن، أو على الأقل مع أبطال طفولتها المتمردين المستهينين بالأعراف والأخطار:

البطل اللامبالي يغادر بهدوء. ما أن يبتعد لمسافة محسوبة، حتى يضغط زرًا فتنفجر محطة الوقود. دون التفاتة منه، يواصل سيره الواثق فيما الانفجارات تتوالى في الخلفية، واللهب يكاد يصل إلى السماء.

لطالما افتتنت كاميليا بالمشاهد المماثلة في الأفلام. أحبت الأبطال المستعدين لتفجير حيواتهم نفسها والخطو على أنقاضها بلا اكتراث أو ندم. كم توحدت مع بول نيومان في مشهد من فيلم «صيف طويل حار»: مسافر بلا وجهة محددة يشير لسيارة مارقة في اتجاه ما وحين لا تتوقف ينتقل للناحية الأخرى من الطريق مشيرًا لعربة تقصد الاتجاه المعاكس. عابر سبيل بلا روابط أو جذور، يشعل النار في حياته في بقعة، ويهرب لأخرى بلا تخطيط مسبق منتظرًا ما يفاجئه به الطريق.

تمنت أن تحيا على هذا النحو بلا روابط أو مسؤوليات. السعادة بالنسبة لها، تمثلت في التخلص من كل ما قد تخاف عليه أو تخشى فقده. أزمتها أنها لم تستطع الوصول إلى هذه الدرجة من التخلي واللامبالاة رغم محاولاتها. كان ثمة دومًا جذر يتغلغل في عمق أرض ما، مرة يربطها بأمها رغم تعقد علاقتهما، وأخرى يصلها بمنير وعالمه المختلف عنها.

ربما تكون ورثت، عن أمها، غرامها بالبطل- الضد، رغم سخريتها سابقًا، من هذا الملمح في شخصية الأم. ورثته بتعديل طفيف: أمها أحبته من بعيد تارة ممثلًا في أحمد سالم، وتورطت معه تارة أخرى ممثلًا في مقامر غير مستقر، تزوجته وهي في العشرين، رغم معارضة أهلها.

أما كاميليا، فلم تشغف بهذا النمط كآخر منفصل عنها، بل أرادت أن تكون إياه.

بعد وفاة دولت، شعرت كاميليا أنها فقدت نصفها الآخر. لم تكونا مقربتين، وهذا ما ضاعف من حزنها. أفزعها أن حياة أمها انتهت قبل أن تصل إلى الستين. حياة سريعة لاهثة تكاد تكون فارغة. فكرت كاميليا في حياة أمها: قرابة ستين عامًا من اللاشيء. ثرثرات وحفلات وزوج غير موجود ونمائم صغيرة ولا شيء أكثر.

رغم سخريتها الدائمة من تعلق أمها بأحمد سالم وعلاقته العابرة بكاميليا، أحست الابنة، وهي تستعيد حياة الأم، أن هذا الملمح هو الأكثر فنية في حياة شبه خالية من الأحداث الكبيرة. بدأت تجمع كل ما يمكنها الوصول إليه عن سالم. أدراج دولت كانت تحتوي على الكثير بالفعل.

فوجئت، وهي ترتب متعلقات أمها، بقصاصات وأوراق جرائد عن أحمد سالم وصور له، أكثر بمراحل مما تحتويه الأدراج من خطابات وصور أبيها. لاحظت كاميليا أيضًا، لأول مرة، الشبه الكبير بين أبيها وبين ممثل الأربعينيات الغامض. للاثنين لون البشرة نفسه، العينان الدخانيتان الموحيتان بالخطورة، ورجولة خشنة مهدِدة.

في تلك اللحظة، خطر لكاميليا أنها لو حدث وكتبت رواية عن أمها، سيكون أحمد سالم بطلها الأساسي بحيث تظهر دولت كمجرد طيف يعكسه ويشير إليه، ومن بين نسائه ستختار كاميليا وأسمهان للتركيز

عليهما: اكتشف الأولى ووقع معها عقد احتكار دون أن ينتج لها فيلمًا واحدًا، فقط قدمها كرفيقة حفلات ونجمة قادمة، قبل أن يتنازل عن عقده معها ليوسف وهبي مقابل ثلاثة آلاف جنيه. وتزوج الثانية لتستقر رصاصة - من مسدسه - في صدره، أثناء شجار عاصف بينهما، رصاصة سوف تتسبب، بعد سنوات، في موته موتًا فريدًا يشبهه ويليق به.

ما لم تفهمه كاميليا أو ترتح له كان صورة لمنير وفريدة بين مقتنيات أمها. الصورة ملتقطة في مطعم ما. الاثنان مستديران نحو من يلتقط صورتهما، فريدة ببلوزة حريرية سوداء بلا أكمام - تكشف عن مساحة لا بأس بها من بشرة برونزية - وسروال ضيق من اللون نفسه، أما منير فممسك بسيجارة بينما يده الأخرى على فخذ زوجته الأولى بتكاسل. الشفاة مبتسمة، وثمة مسحة من استرخاء وحميمية توحي بأن الاثنين غادرا الفراش قبل قليل.

«منير شابًا!»، فكرت كاميليا. الكلمات في خلفية الصورة توحي بأنهما في اليونان، في عطلة من عطلاتهما العديدة. ذاك زمن لم تكن فيه سوى ابنة على أبواب المراهقة لإحدى معارفهما. أعادت الصورة إلى مكانها وأغلقت الدرج.

***

«أجمل ما في الحفلة مين؟ دبدوبة التخينة. اللي لابسة فستان و...؟ فستان وجيبونة. نُطي نَطَّة يا دبدوبة يا اللي تقلك تقل الطوبة. هه هه. وكمان نَطَّة.. ونَطَّة كمان».

تغني فرقة «الفور إم» ويردد خلفها الصغار. تصبح الأغنية من علامات الثمانينيات. تسمعهم كاميليا يرددونها بابتهاج في الحفلات، وترى بعضهم يغمز نحوها، يلتصق اسم «دبدوبة» بها، يناديها الجميع به بعد أن كان حصرًا على أبيها. ينادونها «دبدوبة»، فلا ترد. يبصقه أبوها في وجهها

مبتسمًا، كأنما يعتبره تدليلًا لا إهانة، فتذهب إليه مجبرة وتخفي نقمتها.

ثم لم يعد كل هذا يضايقها أو يشعرها بالخجل، أو ربما بات يضايقها لدرجة لا تجدي معها المكابرة والإنكار، فتفاخرت بجسدها البدين وتعلمت أن تحبه وتتقبله نكايةً في الساخرين منها ومنه.

لم تقهر نفسها بحميات مبالغ فيها، ولم تعد تخجل حين يلمح أحدهم لامتلائها أو يسخر منه. تدربت على السخرية الذكية المضادة والتحدي، على ألّا تقيِّم نفسها بعيون الآخرين ووفق معاييرهم.

كانت الأغنية تتردد في ذاكرة كاميليا بينما تجلس لتناول إفطارها، في مطعم فندق صغير يطل على نهر «ليمات» بزيورخ. برودة الخارج يحتجزها زجاج الواجهة حيث هي. ثرثرات دافئة تلتقطها أذنا كاميليا بين صاحبة الفندق الشقراء النحيفة ونادلة شابة تحكي بحماسة ما يُضحِك المرأة الأكبر سنًا.

لا تفهم كاميليا الكلمات المتقافزة حولها بالألمانية، فتسرح عيناها في المنظر الخارجي. تشعرها السماء الغائمة والصباح الضبابي بالألفة، يردانها إلى صباحات قديمة باردة خاصمتها الشمس وهجرها الضوء، ومع هذا تحتفظ بها كاميليا في ركن دافئ بقلبها.

نهر ليمات أقرب إلى قناة مائية واسعة نسبيًا، تقطعه الجسور على مسافات متقاربة، لتصل بين شطري المدينة. أسراب بط وإوز تسبح فيه وطيور بيضاء تحلّق فوقه، قبل أن تهبط لتمس ماءه سريعًا، ثم تعاود التحليق. مارة قليلون يسيرون متعجلين على الرصيف أمام الفندق، ومارة آخرون أكثر استرخاءً يخطون بتكاسل في الجهة الأخرى بمحاذاة «ليمات»، بينما تتابعهم كاميليا بنصف وعي، وهي تقضم ما لا تنتبه لكُنهه ولا تتلذذ بطعمه.

تفكر أن السير بمحاذاة النهر، سوف يوصلها إلى البحيرة، حيث

يمكنها الجلوس لساعات تقرأ أو تكتب، أو فقط تشرد ساهية عن كل ما حولها.

تعاود النظر إلى النهر وطيوره اللاهية بمائه، وتستعيد في ذهنها وردة حمراء اشترتها أمس من محل زهور بمحطة القطار الرئيسية ببازل، وهي في طريق عودتها إلى زيورخ، وردة متفتحة بساق طويلة، لكنها بلا رائحة تقريبًا، أو بالأحرى برائحة خفيفة تُذَكِّر بورود أخرى كان الأنف يلتقط شذاها من بعيد.

دفعت سبعة فرنكات سويسرية مقابلًا لها، لأنها رغبت في استرجاع ما سُرِق منها قبل أربع سنوات في المكان نفسه.

موظف الاستقبال في فندق «الملوك الثلاثة» كان قد منحها وردة حمراء كهدية وداع، وضعتها في حقيبة يدها بحيث تظهر الزهرة وجزء من ساقها، وغادرت. اطمأنت على وجودها قبل أن تدخل محطة القطار، وعند الجلوس في مقعدها بالقطار المتجه إلى مطار زيورخ، فوجئت باختفائها.

ولأن كاميليا هي كاميليا؛ ابنة أمها وورثت الكثير عنها، رغم تمردها الظاهري عليها، فهي تؤمن بالعلامات وتتطيَّر إذا صادفها حدث سيئ، لذا لم تتعامل مع الأمر كتفصيلة عابرة، بل كنذير شؤم.

وهكذا بعد سنوات أربع، ظلت تتذكر وردتها المفقودة، وخُيِّل لها أن شراء واحدة مشابهة من المكان نفسه حيث فقدت الأولى سيمثل تعويضًا ما. وانتهى بها الأمر جالسة تحدق في الحياة بالخارج، عبر زجاج واجهة فندق صغير، فيما وردتها البديلة ترقد في غرفتها وقد بدأت في الذبول.

ما أن عادت إلى غرفة الفندق في آخر النهار حتى وضعتها بحرص بين دفتي كتاب كما يفعل العشاق الصغار، قبل أن تظل مخبأة في أحد أدراج غرفة نومها في القاهرة، تصادفها كاميليا أحيانًا وهي تبحث في

الدرج عن شيء ما، فتندهش من إصرارها على استعادة الوردة المفقودة. تحدِّق في الشيء الجاف أمامها، فيتضاعف جمال وردة - لم تكن لها- رغم أنها لا تكاد تتذكر شكلها.

تعصر ذاكرتها لاستحضار وردة كبيرة حمراء، كانت ملكها لعشر دقائق فقط، فيُهيأ لها أنها تسمع ليلى مراد تغني أغنية قديمة، لا تفهم الصلة بين ليلى، ذات الصوت الماسي، وبين زهرة تتخيل أوراقها القانية تنفصل وتطير ببطء في الهواء.

تتذكر فقط أن أحدًا لم يخبرها، في سديم الطفولة، أن ثمة جمالًا يحتاج إلى درجة كافية من النضج للإحساس به، أن ثمة فنًا يتطلب ذائقة مدربة لتقديره؛ لأنه لا يبذل نفسه لعابر عجول لا يجيد سبر أغوار الفتنة.

احتاجت سنوات حتى تنتبه إلى سر ليلى مراد وصوتها، حتى تتذوقه وتفك شيفرته بنفسها.

لكن ما علاقة هذا بأي شيء؟ يخطر لكاميليا في هذه اللحظة أن تضيف لعبة جديدة لألعابها الذهنية اللانهائية: اختراع صلة بين أشياء لا صلة ظاهرة بينها.

هكذا يمكنها وَصْل صوت ليلى مراد بوردة بازل المفقودة، رقص جين كيلي تحت المطر بسرداب شحيح الإضاء، رائحة الزعفران بحجر الأماتيست، جسد مارلين مونرو بكارثة وشيكة الوقوع، وجه بريندون يوري بسيل عارم، صوت ريتشارد بيرتون بجزيرة إستوائية، رباعيات عمر الخيام بشجر اللوز، مارلين مانسون بذات الرداء الأحمر، لوسيان فرويد بثلوج لا نهائية، شخصيات مارك شاجال المُحلِّقة بسفينة غارقة، نظرة فيفيان لي بالاكتشافات المتأخرة!

فيفيان لي؟ كيف لم تلمح كاميليا في عينيّ فيفيان لي طيف الجنون المحدق بالممثلة الجميلة؟ كيف أخطأه حدس مِيليا المدرب على

اصطياده؟ أي نظرة ارتسمت في عينيّ فيفيان الجميلتين وهي تتلقى جلسة الكهرباء الأولى! وما كان إحساسها بينما تُدحرَج ملفوفة في بطانية مثلجة! لم يصدقها لورانس أوليفييه، في البداية، حين حكت له عمّا تفعله الممرضة بها. ظن الأمر محض هلاوس واختلاق. لم يعرف أن هذه هي طرق العلاج المختارة لحالتها إلا لاحقًا.

العينان الذكيتان اللتان لفتتا انتباه كاميليا حين شاهدت «ذهب مع الريح» لأول مرة، كانتا تخبئان بذرة الجنون وترعيانها. لمحت فيهما كاميليا أيضًا وعدًا بـ«دراما كوين» مسكونة بتدمير الذات.

كاميليا نفسها «دراما كوين» متنكرة، بداخلها ميل مقموع للتهويل والمبالغة والهستيريا، ميل تبذل جهودًا خارقة للسيطرة عليه ومحاصرته، فتبدو لمن لا يفقه، ملكة للهدوء والعقل والرزانة.

من يتابعها وهي تتكلم، يخالها تفكر كثيرًا قبل النطق بكلماتها، وتتردد قبل التورط في الحديث، كأنما تفضل عليه الصمت وتركن إليه كحجر زاوية ترتكز عليه حياتها، غير أن صمتها وعدم تدفقها في البوح، ليسا إلّا مجرد قناع: وسيلتها لترويض نفسها، ومحاولة لبناء سد يحجز خلفه طوفان الكلمات والأصوات المحبوسة بداخلها في انتظار أدنى فرصة للإعلان عن نفسها.

مع دُربة كاميليا على قمع ميلها للمبالغة والثرثرة، لم تعد تعرف من هي: أهي المرأة المندفعة المتحمسة الثرثارة حين تشعر بالارتياح؟ أم أخرى تضحك بحساب وتتكلم بحساب ولا يكاد يفاجئها أو يدهشها شيء؟ أخرى، لو عايشت يوم القيامة، لو صفته بمجرد يوم غير ملائم للخروج.

***

«أجمل ما في الحفلة مين؟....». تسمع كاميليا الأغنية القديمة بأذنيّ خيالها، فتدور حول نفسها بلا توقف، على إيقاع موسيقى وهمية،

مستعيدة لعبة الطفولة المدوخة: «دوخيني يا لمونة»! حيث الدوار وفقدان التوازن غاية، وحيث الغرق في حالة البين بين أمل مرجو.

تلف وتدور، حتى تنتشي بشعور انخطاف تمتزج فيه كل الأشياء وتتداخل. تستحيل طفلة تلف حول نفسها بلا نهاية وهي تردد بصوت لاهٍ: «دوخيني يا لمونة»، حتى تدوخ فعلا وتغيم رؤيتها فتتوهَّم أن البلاط يتحرك والسقف يدور معها، فترتمي على الأرض في الصالة الخلفية لبيت أهلها مستسلمة ومستمتعة بدوار مُغلَّف بظلال وأخيلة متداخلة. تغيب عن واقعها وذاتها وتفقد ذاكرتها لبرهة، تقترب فيها من لحظة الإفاقة من التخدير بعد العمليات الجراحية، حيث يكون عقلها ورقة بيضاء وذاتها بلا سمات وجسدها غير مُدرِك بعد لآلام الجراحة كونه مغيَّبًا بالمخدر. ما أجملها من حالة!

في لحظة تشبه الاستبصار، تناست كاميليا الأغنية واللعبة المدوخة، وخُيِّل إليها أنها ترى نفسها بلا وجه. رأسها كرة بلا ملامح. بهت الوجه وامَّحى، وكلما أمعن في غيمانه، اتضح جسدها وعاد لاكتنازه القديم. غاب الوجه تمامًا، ثم طال الشعر وبات أشبه بشعر أمها وشعر فريدة بالتبادل.

ثم كأن رسامًا بدأ يرسم الملامح المفقودة، ظهرت لها عينان، تلاهما أنف، حاجبان، وفم. كف عن أن يكون وجهها الأليف القديم، رأت نفسها فريدة وهي تتمسح في منير ويتلوَّى جسدها في حضنه بحفلة ما، ثم صارت أمها وهي تفرد أوراق «التاروت» أمامها، ثم تعبس حتى تنحفر تجعيدتان بين حاجبيها وتزم شفتيها مترددة هل تعلن ما باحت به الأوراق أم تتحايل وتلطِّف تنبوءاتها.

بعدها أصبح الوجه لمنير وأبيها معًا: كانت تحمل عينيّ منير وأنف أبيها، ذقن منير وشفتيه الحازمتين، ووجنتيّ الأب وجبهته. كان الأمر

طريفًا: أن يكون لجسدها الأنثوي الممتلئ ذي التضاريس الواضحة، هذا الوجه الذكوري.

لولا رهبتها من هذا التبدل المتلاحق، واختفاء وجهها كما تعرفه، لضحكت كاميليا حتى انقطاع أنفاسها. غير أنها لم تكن في وارد تقدير الجانب الهزلي في ما تراه. عادوها الشعور باتساع الحفرة المظلمة بداخلها، بل أحست أن كيانها كله حفرة لا قرار لها، هاوية تغرق فيها الأحاسيس والمشاعر والذكريات وتنعدم.

مدت يدها إلى دُرج الكومود المجاور، تناولت حبة منومة، ابتلعتها، ثم انتظرت نومًا تمنته بلا أحلام.

انتهى قبل أن يبدأ؟

من مقعد خشبي في باحة متحف على ضفة الفلتافا قريبًا من جسر تشارلز بدأ كل شيء.

وعلى مقعد خشبي في باحة متحف على ضفة الفلتافا قريبًا من جسر تشارلز انتهى كل شيء، تلاشى قبل حتى أن يبدأ.

الهواء منعش والشمس دافئة، وأصوات خافتة تنبعث من المطعم المطل على النهر والمقهيين في مواجهة وإلى يسار المقعد، وامرأة مكتنزة ترتاح على المقعد المطلي بالأخضر الداكن وعيناها ممغنطتان إلى الأرض في المسافة بين قدميها المتباعدتين قليلًا. إلى جانبها رجل بشعر داكن طويل نسبيًا وملامح حادة.

«يوم جميل.. أليس كذلك؟». قال، محاولًا بدء حوار مع جارته. هزت رأسها موافقة دون كلام، فانطفأت رغبته في الدردشة مع امرأة لا تدل ملامحها على عِرقها أو جنسيتها.

أخرج كتابًا واستغرق في القراءة، انغمس في أجواء مدينة فُرّغت من الهواء بفعل أطنان من القنابل شديدة الانفجار، ونهر يكاد يغلي ماؤه، وأمين مكتبة يرى نفسه ناسكًا عارفًا بالطاو مُثبّتًا قلبه على جوهر الفراغ، وغابة بلوط رطبة ومظلمة.

أما المرأة فواصلت التفكير في حلم يسكنها، تكتب فيه قصة - وتشاهدها وتشارك في أحداثها - عن كاتبة روسية وعازف يتأمل بأسى أصابعه المفرودة على مفاتيح البيانو، وعجوز يذرع جسرًا بلا انقطاع، جسرًا سبق لها أن شاهدت شبيهًا له في فيلم بالأبيض والأسود غابت عنها تفاصيله، ولم تتبق منها سوى إضاءة شاحبة وجسر على نهر وشوارع شبه خالية من البشر.

في الوقت نفسه، وبعيدًا عن الفلتافا وبراغ ومتحف كافكا، في حديقة عامة مهملة ومنسية على مقربة من النيل، كان ثمة امرأة في التاسعة والثلاثين، تتحسر على طفل أجهضته قبل أن يولد، وتحدق في صورة التقطتها سابقًا بعدسة تليفونها المحمول، صورة مثل ركلة غير متوقعة، تظهرها وحيدة منهكة وأكبر من عمرها الفعلي بسنوات.

رفعت المرأة وجهها إلى السماء، تتأمّل تشكيلات السحب، وانفصلت عن ضجيج الشارع القريب، ثم وضعت يديها على جانبي رأسها، وركزت على تأمل الأرض في المسافة الفاصلة بين قدميها.

القاهرة – 22 مارس 2016

الفهرس

ليست صورة، بل ركلة محكمة! 7

فليكن اسمها أولجا................................ 22

عازف يحدق في أصابعه............................ 31

حديقة الورد...................................... 41

قصة بالغة التعقيد.................................. 51

ليمون ومشهد من ماضٍ سحيق...................... 61

حيث بدأ كل شيء.................................. 72

رجل وامرأة وثالثهما بئر 81

ناسك في غابة..................................... 88

فُلك ابن منظور 101

حيث السحب منخفضة................................ 111

آميديا.. أو سماء بلون الفيروز 124

عالم أزرق.. 135

امرأة حلمت أنها وردة! 143
حَبَّة واحدة تكفي! 153
اسم اللعبة 160
انتهى قبل أن يبدأ؟ 171

في "أخيلة الظل" نحن أمام لعبة افتراضات وتخيلات لا يتضح تمامًا من يديرها: كاميليا؟ أولجا؟ أم راوٍ خفي يحرك الجميع بين مدن واقعية وأخرى متخيلة، ويجوس في ذاكرة الشخصيات التي تشبه الأواني المستطرقة؟

سردية تتشكل من التمازج بين الوعي والذاكرة، الحلم والواقع، الماضوي والآني في لعبة سردية مثيرة؛ لعبة كتابة – أو"تراسل" – متبادلة، تتخللها قصص ومرويات يكتبها أبطال اعتادوا تبادل حكاياتهم، رغبةً في القفز لآبار الذكريات المعتمة، أو سعيًا لتفسير لحظة حاضرة، أو لملامسة خبرة الألم التي تحاصر الجميع كالهاجس أو الكابوس.

من مقعد خشبي على ضفة نهر الفلتافا في براغ، ينفتح صندوق حكايات، تُنسَج منها مرويّة ذات إرث ثقافي متنوّع.

منصورة عز الدين كاتبة مصرية من أعمالها: "متاهة مريم" و"جبل الزمرد" و"وراء الفردوس" التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية ٢٠١٠.

تُرجِمت رواياتها إلى الإنجليزية والإيطالية والألمانية والفرنسية، وقصصها القصيرة إلى أكثر من عشر لغات.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

التنوير